اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

د. أحمد عبد الوارث

الحسد من المنظور الإسلامى والأدبى



إهـــــــداء ٢٠١٠
دار الكتب و الوثائق القومية
القاهرة

اقرأ
سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف
[٧٣٤]

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة
لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

مرسى ، احمد عبد الوارث .
الحسد من المنظور الاسلامى والادبى فى ضوء العلم الحديث / احمد عبد الوارث مرسى .
ـ القاهرة : دار المعارف ، (٢٠٠٩) .
١٥٢ص ؛ ١٧ سم . ـ (سلسلة إقرأ) .
تدمك : ٤ ـ٧٣٦٣ ـ ٠٢ ـ ٩٧٧ ـ ٩٧٨ .
١ـ الحسد فى القران
٢ـ الحسد
أ ـ العنوان
ديوى ٢٢٩,٤١٧٩٨

رقم الإيداع ٢٠٠٩/١٦٨١٨   ٢٠٠٩/ ٩/ ١٦ /١

تنفيذ المتن والغلاف
بالمركز الالكترونى
دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ — فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ — E-mail: maaref@idsc.net.eg

د. أحمد عبد الوارث مرسى

الحسد من المنظور الإسلامى والأدبى في ضوء العلم الحديث



دار المعارف

اقرأ

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها، لم يفكروا إلا فى شىء واحد، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية. وأن ينتفعوا، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها.

طه حسين

دار المعارف

أحلام شهرزاد – العدد الأول من سلسلة اقرأ الشهرية صدر عام ١٩٤٣

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، خير من نطق بالضاد، وخير من عبد ربه حتى أتاه اليقين، أما بعد...

فهذا تقديم لكتاب: «الحسد من المنظور الإسلامي والأدبي في ضوء العلم الحديث». لمؤلفه الأستاذ الدكتور/ أحمد عبد الوارث مرسى، الأستاذ المتفرغ بكلية الآداب جامعة سوهاج.

لقد تناول المؤلف قضية مهمة تناقش مرضا اجتماعيا خطيرا يستشرى في أوصال المجتمعات، منذ بدء الخليقة على الأرض، بل وإنها لقبل ذلك بكثير، فعند استعراضه لتاريخ الحسد بين أنه بدأ في السماوات في حسد إبليس لآدم، وبعد ذلك حسد قابيل لهابيل وما توالى بعد ذلك من أشكال الحسد وألوانه وصنوفه في مواكب التاريخ المتتالية.

ولقد تناول المؤلف هذه القضية من المنظور الإسلامي، فاستحضر النصوص القرآنية، والأحاديث النبوية التي عالجت هذا الموضوع، وسار على هديها، شارحا، وموضحا، ومبينا، ما وسعه البيان والشرح والتوضيح، ثم هو بلباقة الأديب الناقد، استطاع أن يربط- بذكاء- بين النصوص الدينية، قرآنية أو أحاديث نبوية،

وبــين معالجــة الأدب لهذا الأمر. ولقد اختار علمــا من أعلام العصر العباسى، وأديبا من أدبائه العظام، وهو الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب) ذلك الرجل الذى ملأ الدنيا وشــغل الناس، بعلمه وموســوعيته، فكان ربطا موفقا وفنا يشــهد له بــه كل من يقرأ هذا الكتاب النافع إن شاء الله.

ومما يحمد للمؤلف فــى هذا العمل، أنه ربط ربطا جيدا بين الماضى والحاضر؛ بين كل الدراســات السابقة عن الحسد وبين العلم الحديث؛ وذلك ببيانه أن العين هى الأداة التى يؤثر بها الحسد وأنه يخرج منها شــعاع غير مرئى له أثر مدمر على المحســود، هو أقرب الشبه بأشعة الليــزر التى يســتخدمها الجراح بديلا عن المشــرط لإجــراء العمليات الجراحية.

ومــن العجب أنــك ترى فى هذا المؤلف وصفا دقيقا وصادقا للحاســد حالة حسده من تخوص عينيه واصفرار وجهه والإعراض عن المحسود والاستثقال لحديثه وكلامه، وانتفاخ أوداجه إلى آخر ما ذكر.

وإنك لترى فى هذا المؤلف أيضا كيف كان الحسد سببا رئيسيا لأمراض خطيرة أخرى، وداءات اجتماعية متعددة؛ مثل الكبر والغضب والكذب والعداوة والكراهية إلى غير ذلك.

والمؤلف لم يغفل ذكر العلاج الذى ذكره القرآن الكريم والسنة المطهرة لهذا الداء العضال علاج شاف بإذن الله تعالى.

وأخـيرا فإن هذا المؤلف عمل جيد أسـأل الله أن يعم نفعه المسـلمين عامة، ومؤلفه جاد، بذل فيه جهدا يحمد له. أسأل الله لى وله وللمسلمين أجمعين التوفيق والسداد.

والله من وراء القصد وهو مولانا ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

أ. د/ سعد خلف عبد الوهاب

أستاذ العقيدة والفلسفة

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

بنات سوهاج جامعة الأزهر

عضو المعهد العالمى للوحدة الإسلامية بماليزيا

مقدمة

الإسلام دين الله الحنيف الذى بُعِث به رسول الله ﷺ كما أخبر بذلك، وهو الدين الذى أخرج الله به الناس من ظلمات الجهالة إلى نور المعرفة ومن أوحال الشرك والكفر إلى بر الأمان، وحقيقة الإيمان، وهداية الحيران؛ فكان ضياء ونورا ورحمة وحبورا، ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾[1].

بُعِث الرسول ﷺ بالإسلام فى أمة وُسِم عصرها بالجاهلى من الجهالة وحماقة طباعهم وقلة العلم فى أمور كثيرة ولا نعلم لهم أثراً طيباً إلا فيما وصلنا من أدب رفيع منهم، وبعض العادات التى فرضتها عليهم ظروف معيشتهم وإن كانت جل عاداتهم لا ترقى إلى المستوى اللائق بالآدمية؛ فهم يئدون البنات، وينتهكون المحرمات، ويشربون الخمر ويظلمون الضعفاء، ويدوسون بأقدام ثقيلة على المساكين والفقراء واقتتال

---

(١) سورة المائدة ١٥- ١٦.

فيما بينهم على أتفه الأسـباب وقد تدوم حروبهم عشرات السنين تأكل الأخضـر واليابس وتقضـى على كل غرس غرسـوه أو أمر أبرموه حتى غـدا مجتمعهم مقطع الأوصال مما جعل الأمراض الاجتماعية تدب فيه وتهجم بشراسة عليه.

وفى يوم عظيم شـأنه، جليل قدره أذن الله للنـور بالانبلاج وللكون بالارتجـاج لهذا السـراج الوهاج الذى أضاء الكون كلـه بما أمر الله به نبيه أن ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾[1] آيـات مبينـات من كتاب رب الأرض والسـماوات تضيىء، فتخبو الشـموع الباهتـة، وتكسـر الآلهة الزائفة وتـداس بالأقدام العـادات البالية، ويسترد الإنسان كرامته ويستعيد الخير صحته وعافيته.

نزل القرآن ليتناول كل شـئون الحياة ويرتب وينظم علاقة الإنسان على أساس متين، فى جميع جوانبها؛ يرتب علاقة الإنسان بربه التى تقوم على عبادة الله وترك ما سوى ذلك. وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان؛ فلقد أودع الله فى الإنسـان من النوازع ما لا يعلمها إلا هو، ومن ثم فإن القرآن تناول- في مواضع متعددة منه- خلق الإنسـان وحياته وطباعه وعاداته وأخلاقه؛ تناوله فى كل طور من أطوار حياته منذ أن كان جنيناً

(١) سورة العلق ١- ٥.

فى بطن أمه، إلى أن أُخرج من هذا المكان- بإذن ربه- وهو لا يعلم شيئاً ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾[1]، إلى أن رُدّ إلى أرذل العمر ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾[2] وإن مما اهتم به القرآن- لتنظيم حياة الإنسان وتعديل علاقته بربه ثم علاقته بأخيه الإنسان- المشكلات التى يتعرض لها فى حياته اليومية وفى علاقته بالآخرين ومن ثم فقد نبهه إلى كيفية التعامل مع هذه المشكلات وأوجد له الحلول الصحيحة على أساس من تعاليم هذا الدين العظيم.

كما تناول الإسلام علاج الإنسان من كل ما يتعرض له من أمراض اجتماعية خطيرة قد يكون لها أثرها السئ كالحسد والغل والبغضاء، فنهى الرسول عن ذلك كله لقوله: «ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخوانا»[3]، بل واعتبر الرسول الكريم ﷺ الحسد داء خطير فى قوله: «دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء»[4] واهتم القرآن الكريم بهذا الأمر اهتماماً بالغاً لما يسبب الحسد بين الناس من

(١) سورة النحل ٧٨.

(٢) سورة النحل ٧٠.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى- ١٦/ ١١٥ دار الريان للتراث.

(٤) رسائل الجاحظ ٣/ ٤.

عداوة وقطع الأواصر بينهم، فذكر الحسد بصيغ متعددة؛ ذكره بصيغة اسم الفاعل (فاعل الحسد نفسه) ثم بصيغة الفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥ ﴾[1]، وهو هنا يطلب من الرسول ومنا أن يستعيذ بالله من شر الحاسد، وهذه إشارة واضحة وعلامة بارزة إلى أن الحاسد شر مستطير وإنسان خطير على المجتمع المسلم الذى يقوم على أساس من المحبة والألفة والسلام.

وذكر الله- سبحانه- الحسد بصيغة الفعل المضارع على طريقة الأفعال الخمسة مرفوعاً بثبوت النون فى قوله تعالى: ﴿ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٥ ﴾[2]، وأيضاً فى قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ ﴾[3]. وقد نزلت- كما سيأتى- فى شأن اليهود الذين حسدوا النبى ﷺ على النبوة، ولذا فإن الله- جلت قدرته- عقب ذلك بقوله: ﴿ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ۝٥٤ ﴾[4]. واليهود من آل إبراهيم من سلالة إسحاق- عليه السلام- فكأنه يقول لهم: فكما أعطيناكم ملكاً ونبوة ممثلاً ذلك فى الأنبياء من سلالة إسحاق

---

(١) سورة الفلق ٥.

(٢) سورة الفتح ١٥.

(٣) سورة النساء ٥٤.

(٤) سورة النساء ٥٤.

عليه السلام أعطينا الناس نبوة وملكاً ممثلاً فى شخص محمد ﷺ. فهو السراج الوهاج الذى هدى الله به البشرية وأنقذها مما كانت ترزح تحته من وطأة الظلم وقسوة البطش.

وإذا نظرنا إلى الآيتين السابقتين نجد أن الأولى (تحسدون) بصيغة المخاطب والثانية (يحسدون) بصيغة الغائب لغلبة هذا الداء الخطير وسطوته وسلطانه على من أصيبوا به، وهذه إشارة واضحة إلى أن الحسد مرض اجتماعى متواجد بين أفراد المجتمع فالمضارع يدل على وقوع الحدث واستمراره، وأن الحاسد لا يتمنى زوال المال أو الجاه أو البنين أو العلم فحسب الذى عند المحسود بل إنه ليشمل كل ذلك وما هو أخطر من ذلك كله وهو الكفر- نعوذ بالله منه.

وهذا ما ورد- أيضاً- من الحسد فى القرآن الكريم ولكن على صيغة المصدر فى قوله تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾[1]. والمصدر- فى اللغة- هو الفعل أو العمل مجرداً من الزمن، وهذه إشارة واضحة إلى أن الحسد كامن فى نفس صاحبه كمون النار فى الحجر ليس له زمن بعينه يتوجه

---

(١) سورة البقرة ١٠٩.

فيه إلى المحسود، بل هو في كل وقت وحين وفى كل زمان ومكان يرمى بسهامه الفتاكة.

وأما أحاديث الرسول الكريم فى هذا الشأن فهى كثيرة منها ما يحذر من الحاسد وشره ومنها ما يصف الدواء لهذا الداء الفتاك ومنها ما يوجه الحاسد إلى الإقلاع والابتعاد عما هو فيه.

ولقد أثار الحاسد عندى تساؤلات عدة كانت هى المحرك الوحيد لى لأقوم بهذا العمل الذى أرجو أن ينال القبول من الله أولا وآخرا وهي.. ما سبب هذا البغض الدفين الذى يكنه الحاسد لمحسوده دون أن يناله منه أذى يكرهه؟ ثم- ما الفائدة التى تعود على هذا الحاسد الأحمق مما يدسه من سموم في جوفه لمحسوده؟ ثم- ماذا يضيره لو أن الناس جميعاً عاشت في سعة من العيش وبسط في الرزق وهو واحد منهم وسيشمله- بالتأكيد هذا الخير العميم؟.. ثم- ألم يدر بخلده أنه سيعرض- لا محالة- على رب العالمين وأحكم الحاكمين وسوف يحاسب على النقير والقطمير والعظيم والحقير من أعماله وسوف يجازى علي ما أسرف على نفسه وفرط فى جنب الله؟؟

إنها أسئلة ألحت عليّ كثيراً فأردت أن أقوم بعمل أنبّه به ذلك الحاسد أن يكف عن حسده وأن يرعوى عن غيه، ثم أنبه المحسود وأقوده إلى العلاج من هذا الداء الخطير من كتاب ربنا جل شأنه ومن سنة نبينا محمد ﷺ علني وإياه أن نسلم من شرور الحاسدين وأن ننال رضا رب العالمين.

وبحثت عن الوسيلة التى أعرض بها هذا الأمر الخطير وأشرح من خلالها ما جاء من أمر الحسد فى الكتاب والسنة تعريفاً وتحليلاً وأعرف من خلاله تاريخ هذا الحسد وهل هو وليد العصر الذى سبق الإسلام- كما قدمت- أو أنه أسبق من ذلك، وهل داء الحسد خاص بأمة بعينها أو بزمان بعينه؟ أخذت أقلب أمرى وأجتهد قدر طاقتى حتى وقعت على ضالتى وهى (الأدب) وما أدراك ما الأدب. ذلك الديوان العظيم والسجل القويم؛ إنه لسان حال الأمم والمتحدث عنها والمتألم لآلامها والمحقق لأحلامها، هو الذى يرفع بناءها ويبرز عطاءها إنه خلاصة تجارب الأمم وعلاج مشاكلها.

ولا يكون للأدب هذا الدور العظيم فى حياتنا وخاصة فى الحلول العاجلة لمشاكلنا ووضع الدواء النافع لكل أمراضنا الاُجتماعية وغيرها إلا إذا كان على أساس دينى وعقيدة صحيحة أساسها طاعة الله وحده لا على أساس من فكر سقيم على طريقة الطبيعيين أو البهائيين أو القاديانيين أو كل أصحاب الملل المنحرفة المعوجة ممن ضلوا طريق صحيح السنة المطهرة.

إنها طريقة القرآن وسبيل الإيمان. إنها طريقة (لا إله إلا الله) لا معبود بحق سواه ولا أحد يشاركه فى حكمه وملكه، فالملك والملكوت لله، والقرآن هو الكتاب السماوى والدستور الإلهى الذى ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾[1]

---

(١) سورة فصلت ٤٢.

وقديماً منذ أن كنت طالبــاً جامعياً بُهرت بأدب الجاحظ وفكره وقد قــرأت– تقريبــاً– كل كتبه وأعجبنــى علاجه للقضايــا التى يتناولها بالدراسـة والتحليل وخاصة فى تناوله لداء الحسد فى مصنفاته والتى جمعت– فيما بعد– ضمن رســائل الجاحظ؛ فهو رجل موسوعى لايشق له غبار فى هذا المجال.

فهو يعرف الحســد كما جاء فى أحاديث رســول الله ﷺ ويستشهد بعد ذلك بكلام العرب وأشــعارهم ومجالسهم، ويبين آثاره ومثالبه من القــرآن الكريــم. ثم يبين أنواعه كمــا جاء فى الصحــاح فيقول إن منه المذمــوم والمحمــود ويبين كل نوع من هذه الأنواع ثــم هو لا يبتعد أبداً عما ورد من نصوص دينية سواء من الكتاب أم السنة وهو– بروح العالم الجليــل– يربط بين هذه النصوص وبين موســوعيته وما قرأه وما عرفه وما قُصّ عليه من تجارب الآخرين.

ثم يبين حقيقة الحســد ويفسر قول الله تعالى: ﴿ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ ﴾[1]... الخ وبعد ذلك يتحدث عن الحسد والعين.

ويعــرض الجاحظ لتاريخ الحســد فيبين أنه موجــود قبل أن يوجد الإنسان ويعرض لحسد إبليس وابنى آدم إلى آخره مما سوف يأتى بإذن الله تعالى. ثم يبين أســباب الحســد فيعرض لأنــواع مختلفة من الناس

---

(١) سورة القلم ٥١.

وطبقات مجتمعية يدب بينها هذا الداء الخطير. وأخيراً علاج الحسد كما جاء فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ولكن ما الذى جعل الجاحظ يهتم هذا الاهتمام بهذا الداء الخطير. لقد عاش الجاحظ (١٥٩- ٢٥٥هـ) فى عصر الدولة العباسية- وكانت ظروف الحياة حوله تختلف عن كل الظروف السابقة، وكان أدبه يختلف عن أدب سابقيه؛ إذ استطاع أن يجعل الأدب فى خدمة الحياة بعد أن كان- كما يقول عنه الأستاذ أحمد أمين[1]- (كاد يكون شكلاً بحتاً) لكن الجاحظ استحدث به موضوعات جديدة علاجاً لبعض المشاكل الاجتماعية، وإبرازاً لمثالب المجتمع اليومية.

لقد امتدت أطراف الدولة العباسية امتداداً شاسعاً لم تعهده الدولة العربية من قبل فوصلت غرباً إلى المغرب فمصر والشام وجزيرة العرب والعراق وفارس وما وراء النهر شرقاً، وتداخلت العناصر البشرية فى بعضها فشملت عرباً وفرساً وبربرا وهنودا وأتراكا بعد ذلك، وبذا أصبحت الحياة كثيرة المطالب، متعددة الوجوه، ولم تعد البساطة سمة الحياة كما كانت من قبل ولكن المال أصبح كل شىء، وجعل الناس يتكالبون عليه، ويجمعونه بطرق شتى لا يتورعون فى جمعه، وذلك لنشوء طبقة التجار الأثرياء فى البصرة وبغداد، وهى الطبقة التى تقابل

(١) فى كتابه: ضحى الإسلام ٣/ ١٢٨، لجنة التأليف والترجمة والنشر.

الطبقة البورجوازية فى الغرب وكانت تلك الطبقة فى البصرة أعظم؛ إذ كانت ثغر العراق، والمركز التجارى الخطر الذى يصل الشـرق بالغرب، والذى يستقبل متاجر الهند وجزر البحار الشرقية، ومن أجل ذلك كانت تسمى أرض الهند كما ينص على ذلك المسعودى فى مروج الذهب[1].

وأما اقتصاديات البلاد عامة، فقد كانت واسـعة جداً، وأموال الدولة فى عهد الخلافة العباسية طائلة جداً ومثلت ثروة طائلة فى يد الخلفاء وخزانة الدولة إلى عهد المعتصم؛ إذ أصبحت هذه الثروة فى يد الأجناد الغرباء.

وكان لاهتمـام الدولة- أيضا- بالزراعة له أكبر الأثر فى زيادة الثروة فشُقت القنوات، وعززت بعض الصناعات كصناعة النسيج، واستخرجت المعادن من مناجم فارس، وكان لكل هذه الأموال فى أيدى الناس من شأنها أن تجعلهم يعيشـون فى ترف ولهو وتفنن فى المأكل والملبس والمشـرب، كما أنها خليقة أن تجعلهم يختلفون إلى مراكز الغناء واللهو والطرب.

كل هـذه الأمور جعلـت طبقة الفقراء والمعدمـين يتطلعون إلى حياة المترفين المنعمين، فإذا لم ينالوا منها شـيئا دسّوا لهم داء الحسد الذى يكمن فـى قلوبهم. ومن هنا كان هذا المرض ظاهـرة ذلك العصر، فكان جديـرا أن ينال اهتمام رجل أديب عظيـم فى حجم الجاحظ. وذلك هو حسد النعمة على ما سنبينه فيما بعد.

---

(١) البخلاء للجاحظ، مقدمة الأستاذ الدكتور/ طه الحاجرى ص٣٦، ط. سادسة، دار المعارف ١٩٨١.

والعلم نعمة من نعم الله على الإنسان، وإليه تتجه العيون وتتوق النفوس، وكان مما جعل الأنظار تتجه إلى العلماء أنهم أصبحوا مقربين من خلفاء بني العباس يجالسونهم ويغدقون عليهم العطاء، وانتظر خلفاء بني العباس المدح والثناء، ومن ثم فإنهم قربوا الشعراء والأدباء، وولوهم- أحيانا- المناصب العالية في الدولة. ولم يكن هذا شأن الخلفاء فحسب، ولكن الأمراء سلكوا نفس المسلك مع العلماء، وكانوا يتنافسون في ذلك تنافسا شديداً ليستمعوا إلى مآثرهم ويستمتعوا بالثناء عليهم فيما يقال عن هؤلاء من شعر يبث الشاعر فيه مآثرهم، وتآليف في شتى ألوان العلوم والفنون تُهدى إلى هؤلاء لتكون سببا في ثراء الأدباء وشهرتهم، وربما لتوليهم مناصب رفيعة في الدولة؛ فهذا هو المأمون يعجب بكتاب الإمامة للجاحظ فيستدعيه ويطلب منه أن يكتب له رسالة في العباسية والاحتجاج لها، ولما رأى مقدرة الجاحظ الفائقة على الكتابة وسعة ثقافته، أسند إليه ديوان الرسائل؛ وهو من أهم ما يدور عليه محور السياسة العامة للدولة وإن كان الجاحظ لم يمكث فيه سوى ثلاثة أيام[1]، إلا أن كتابته وثقافته كانت سبب شهرته. وكتب الجاحظ- أيضا- لمحمد بن عبد الملك المعروف بابن الزيات وزير المعتصم، ثم الواثق وكان من أكابر رجال الأدب والسياسة، فمدحه الجاحظ، وأهداه كتاب

---

(١) معجم الأدباء لياقوت ١٦/ ٧٨- ٧٩.

(الحيوان) فأعطاه الوزير خمسة آلاف دينار. كما أهدى الجاحظُ كتاب البيان والتبيين لابن أبي دُوَاد فأعطاه فيه خمسة آلاف دينار أيضا. وأهدى الفتح بن خاقان وزير المتوكل بعضا من كتبه منها كتاب «مناقب الترك وعامة جند الخلافة».

الكتابة- إذن- مصدر من مصادر الرزق والعطاء الذى يُغدق على الكُتّاب الخير الكثير، ثم هى سبب من أسباب الشهرة والارتقاء والتقرب من الخلفاء والأمراء والوزراء، ومن ثم فهى سبب من الأسباب الذى يتحاسد عليه الناس، وقد قامت رسالة الجاحظ الأولى عن الحسد (فصل ما بين العداوة والحسد) على هذا النوع منه.

هذه هى الدواعى الحقيقية التى جعلت مرضا كالحسد يستشرى فى أوصال الدولة آنئذ ليكون ظاهرة اجتماعية خطيرة، ومرضا من أمراض العصر وإن لم تخل منه كل العصور، ومن هنا كان اختيارى لأدب الجاحظ لموسوعية صاحبه، وكذلك للفترة الزمنية التى عاشها الجاحظ، ثم هو- بعد ذلك ينطلى أى الحسد- على كل زمان وأوان، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

د. أحمد عبد الوارث مرسى

تعريف الحسد

الحسد هو رغبة الحاسد في أن تتحول إليه نعمة الآخرين وفضيلته أو يُسلبها هو؛ فهو تمنى زوال نعمةٍ من مستحقٍ لها وربما كان مع ذلك مسعى في إزالتها.

ومضارعه مضموم العين، أومكسورها فيقال: حسَد يحسُدُ (بضم السين) ويحسِد (بكسرها)، والمصدر حسَداً (بالتحريك) وحسادة. ويوصف الواحد فيقال: حاسد وحسود، وأما الأنثى فمن غير تاء، ويقال في الجمع قوم حُسَّد وحسَّاد وحَسَدة، وفعله يأتي متعديا ولازما فيقال حسده على الشيء وحسده إياه، قال الشاعر[1]:

أتَوْ ناري فقلت: منون أنتم فقالوا: الجنُّ قلت عِموا ظلاما
فقلت إلى الطعام فقال منهم زعيم نحسد الإنسَ الطعاما

والحسد، بمعنى القشر؛ ولذا فإن الحسد ربما كان مأخوذا من (الحسدل) الذى هو القراد، ووجه الارتباط بين المعنيين؛ أن القراد يقشر الجلد ويمتص الدم، والحسد يقشر القلب ويمتص إيمانه. وهذا المعنى

---

(١) الشعر كما نقل ابن منظور عن ابن برى- لشمر بن الحارث الضبى، وربما روى لتأبط شرا. انظر لسان العرب: مادة (ح س د).

مجازى. أو ربما كان المعنى المرتبط بلفظى الحسد والحسد هو الالتصاق والملازمة، فكما أن القراد يلتصق بالجلد ويلازمه ولا يتركه، فكذلك الحسد يلتصق بالقلب ولا يترك صاحبه إلى أن يأتى الموت على رمته[1].

وقد بين الإمام الغزالى- رحمه الله- حقيقة الحسد فقال: أما الحسد، فهو متشعب من الشح؛ فإن البخيل هو الذى يبخل بما فى يده على غيره، والشحيح: هو الذى يبخل بنعمة الله- وهى فى خزائن قدرته لا فى خزائنه- على عباد الله تعالى فشّحه أعظم. والحسود: هو الذى يشق عليه إنعام الله- تعالى- من فضله على عبد من عباده بعلم أو مال أو محبة فى قلوب الناس، أو حظ من الحظوظ، حتى إنه ليحب زوالها عنه وإن لم يحصل له من ذلك مصلحة، وهذا منتهى الخبث، فلذلك قال النبى- ﷺ- «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»[2].

وقد عرف الجاحظ الحسد بما عرفه رسول الله- ﷺ- أنه داء فقال عنه: (والحسد- أبقاك الله- داء ينهك الجسم ويفسد الود، علاجه عسر وصاحبه ضجر، وهو باب غامض وأمر متعذر، وما ظهر

---

(١) راجع فى تعريف الحسد:

(أ) لسان العرب لابن منظور مادة (حسد).

(ب) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى.

(٢) رواه أبو داود من حديث أنس وانظر إحياء علوم الدين للغزالى وتخريج الحافظ العراقى ٣/ ٢٠١.

منه فلا يداوى، وما بطن منه فمداويه فى عناء ....)[1] ثم استشهد على ذلك بقول الرسول- ﷺ-: «دبّ إليكم داء الأمم قبلكم: الحسدُ والبغضاء»[2] فعدّ الجاحظُ الحسد مرضاً ينهك قوة البدن، كما أنه يفسد الود ويفكك الروابط بين الناس وهو لا يجد علاجاً له، إذ يعتبره أمراً من الأمور الغامضة، أى إنه لم يفلح فى تشخيصه، أو ربما فى السر الذى به يضر.

والجاحظ يجعل للحسد طريقين؛ طريقا غامضا غير معروف، ومن ثم فإن علاجه بعيد صعب، وطريقا واضحا يستحيل علاجه. أو ربما أراد الجاحظ بالطريقين الحسد الذى يظهره صاحبه أو الحسد الذى يكمن فى القلب كمون النار فى الحجر كما سيأتى.

ثم يبين حقيقة الحسد بأكثر مما سبق فيقول: (والحسد عقيد الكفر وحليف الباطل، وضد الحق وحرب البيان)[3].

وبذلك يربط بين الحسد والكفر فيبين أنهما متلازمان، وبين الحسد والباطل فيبين أنهما متحالفان، وهاتان صفتان من أسوأ الصفات، ومن أردأ الخلال التى حالفها الحسد.

---

(١) رسائل الجاحظ (رسالة الحاسد والمحسود) ٣/ ٣ تحقيق عبد السلام هارون ط. أولى الخانجى ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

(٢) أخرجه الإمام أحمد والترمذى عن الزبير بن العوام.

(٣) الحاسد والمحسود ضمن رسائل الجاحظ ٣/ ٤.

وأما مساوئه الأخرى فإنه ضد الحق، وحرب على البيان الذى امتن الله به على الإنسان فقال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴿٤﴾﴾[1]. وهكذا نجد الجاحظ يجنح إلى البيان فى هذه الاستعارات التشخيصية التى تحيل المعنوى إلى المحسوس فتتضح الفكرة وتكتمل الصورة التى رسمها للحسد بأنه ضد كل معانى الخير، وبأنه حليف وقرين لكل معانى الشر فى المجتمع.

والعبارات الأربع السابقة، عبارات قصيرة معبرة ليس فيها تكلف ولا تصنع، وقد استخدم الجاحظ اللفظ استخداماً بارعاً فنياً حاذقاً؛ فنرى الترادف بين عقيد وحليف، كما رادف بين الحسد والكفر ليُعلم أنه هو، ونرى التضاد بين الحق والباطل لتتضح الفكرة التى يريد إبرازها، كما يلحظ أنها عبارات جاءت خالية من السجع أو أى زخارف لفظية، ليكون اهتمام القارئ منصباً على الفكرة ذاتها.

ونُحسّ- ونحن نقرأ العبارات- بموسيقى عذبة هادئة أوجدها قِصَر الجُمل وترتيب الألفاظ، فكل جملة جاءت من كلمتين متساويتين تقريبا فى عدد الحروف مما أوجد هذا الجرس الموسيقى العذب، وهو ما يبعد السأم والملل فى نفس القارئ، ويجعله أكثر تفهماً للمعانى.

---

(١) سورة الرحمن ١- ٤.

أنواع الحسد

(أ) الحسد المحمود:

والحسد

وإن كان بهذه الصورة البشعة التى صُورت له- فإن ذلك ليس على إطلاقه وإنما يجب أن يُعرف أن منه المحمود، ومنه البغيض إلى النفس المذموم؛ وفى الصحيحين من حديث ابن عمر- رضى الله عنهما- عن النبى- ﷺ- أنه قال: «لاحسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله- عز وجل- القرآن، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً، فهو ينفقه فى الحق آناء الليل وآناء النهار».[1] وهذا هو الحسد المحمود لأنه رغبة فى فعل الخير، فلا يوجد خير أعظم من تلاوة القرآن؛ كلام الله والتعبد به فى الليل والنهار، ولا يوجد أعظم من وجود المال وإنفاقه فى سبيل الله وعمل الخير فى الليل والنهار.

وقد تعرض الجاحظ فى آخر رسالته (فصل ما بين العداوة والحسد)[2] للحديث السابق، وقدم له بقوله: ولانعلم الحسد جاء فيه شيء أكثر

---

(١) أخرجه الشيخان والترمذى، انظر صحيح البخارى ٩/ ١٠٤ طبع دار الشعب.

(٢) ضمن رسائل الجاحظ ١/ ٣٣٧.

من حديث روى عن النبى- ﷺ- «لاحسد إلا فى اثنتين ......» وذكر الحديث، وهو مروى عن الشيخين، وما عداه من الأحاديث فى هذا الشأن ففيها أقوال، فكأن الجاحظ يريد أن يقول: لا نعلم الحسد جاء فيه شىء صحيح غيره، ثم عقب على الحديث بقوله: فهذا الحسد، إنما هو فى طاعة الله عز وجل، وطاعة رسوله- ﷺ- ثم قال: وقال بعض الأشراف:

احْسد على نَبْل المكارم والعلى   إذ لم تكن فى حالة المحسود
حَسَدُ الفتي بالمكرمات لغيره   كرمٌ ولكن ليس بالمعدود

ففى هذين البيتين دعوة إلى الحسد، ولكن الحسد المحمود الذى أجمله الرسول الكريم- ﷺ- فى حديثه المتقدم، وقد وضحه الجاحظ بالبيتين، وعدّ الحسدَ على نيل المكارم والعلا حسداً محموداً لأنه من مكارم الأخلاق.

(ب) الحسد المذموم:

وأما الحسد المذموم، وهو تمنى زوال نعمة الغير ولو لم يعد إليه منه شىء، فهو النوع من الحسد الذى ركز الجاحظ عليه وأفرغ فكره فى قالبه، وأورد الأمثلة الكثيرة عليه فى أدبه.

وقد جعل هذا النوع من الحسد على درجات؛ فمنه حسد العالم، وحسد الجاهل، والحسد بين الأقارب، وحسد الجيران، وحسد الخلان، وكل هذه الدرجات لها أسباب توجبها، وقد جاء فى كتاب مفتاح السعادة

ومصباح السيادة[1]: ولما كان الحسد اقتضى سابقة الارتباط بين الشخصين، كثر بين الأمثال والأقران، والإخوة وبني العم والأقارب دون شخصين في بلدتين متباعدتين. ثم لما اشترط في الحسد التزاحم، حسد العالمُ العالمَ دون التاجرِ، والشجاعُ الشجاعَ دون الإسكافِ ونحو ذلك[2].

وقد عدّ الجاحظُ حسد العالم أشد خطراً وأكثر ضرراً من حسد الجاهل فقال: وحسد الجاهل أهون شوكة وأذل مَحِنا من حسد العارف الفَطِن ومثّل على ذلك: بتحاسد المؤلفين، وأنه كان يقوم بتأليف الجيد من الأعمال ويريد أن ينكبَّ الناس على قراءته فينسبه إلى غيره؛ لأن الحساد لا يستحسنون له عملاً مهما بلغت درجة تفوقه في ذلك العلم، وهم ينقسمون إلى عالم خبير، وحاذق ماهر فيه، وإلى جاهل في فهم ما يقرأ فيقول: لأن الحاسد الجاهل يبتدر إلى الطعن على الكتاب في أول وهلة يقرأ عليه، من قبل استتمام قراءة ورقة واحدة، ثم لا يرضى بأيسر الطعن وأخفّه حتى يبلغ منه إلى أشده وأغلظه من قبل أن يقف على فصوله وحدوده. وليس ثلبه مفسراً مفصلاً، ولكنه يجمل ذلك ويقول: هذا خطأ من أوله إلى آخره وباطل من ابتدائه إلى انقضائه[3].

---

(١) لطاش كبرى زادة ٣/ ٣٩٦– ٣٧٣. وانظر الموسوعة الذهبية د. فاطمة محجوب ١٣/ ٦٣٣.

(٢) نقلا عن الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية ١٣/ ٦٢٦.

(٣) فصل ما بين العداوة والحسد ضمن رسائل الجاحظ ١/ ٣٥١– ٣٥٢.

فالحاسد الجاهل- فى نظر الجاحظ كل همه الحسد دون روية أو تفكير، ولذا فإن منطقه سقيم ورأيه ضعيف، لا يستند إلى حقائق علمية وأصول نقدية، فيكشفه نقده هذا بأنه حاسد، ومن ثم فإن اللبق يفهم ويدرك توجيه هذا النقد.

استدلال منطقي وكشف لستر الحاسد، ووصف له بأنه غبي جاهل ليس له هَم إلا الحسد والتشفِّي من محسوده، وهذا الصنف من الحاسدين لا يُخشى منهم ولا يحسب لهم حساب.

أما الحاسد العالم، فإن له عقلاً يزن به الأمور، ويضعها فى نصابها؛ فهو يقرأ العمل جيداً ويبحث عن مثالبه الحقيقية، ويجتهد بقدر ما وسعه الاجتهاد لكشف حقيقة المحسود وفضحه وجعله هدفا للجميع، وقد قال عنه الجاحظ: «والحاسد العارف الذى فيه تقية ومعه مُسكة[1]، وبه طعم[2]» أو حياة إذا أراد أن يغتال الكتاب ويحتال فى إسقاطه، تصفَّح أوراقه، ووقف على حدوده ومفاصله، وردد فيه بصره وراجع فكره، وأظهر عند السيِّد الذى هو بحضرته وجلسائه، من التثبت والتأنى حِبالةً يقتنص بها قلوبهم، وسبباً يسترعى به ألبابهم، وسلماً يرتقى به إلى مراده منهم، وبساطاً يفرش عليه مصارع الخدع،

(١) المسكة: العقل الراجح، والرأى. عن المعجم الوسيط. مادة (مسك).

(٢) الطعم: العقل.

فيوهـم به القصد إلى الحق والاجتباء له. فربما استرعى بهذه المخاتل والخُدَع قلب السيد الحازم»[1].

يلحظ في بيان حقيقة الحاسد العارف أن الجاحظ لجأ إلى المجاز في معظم ما قال عنه؛ فلشـدة حرصه على نقض الكتاب وكشـف ما به من مثالب جعل الكتاب كأنه إنسـان ويُغتـال، والاغتيال يحدث على غِرّة دون جـرم أو جريرة، والمغتال ليس له وجود فـى الحياة بعد اغتياله وهذه استعارة توضيحية لأنها كشفت حقيقة ما يصبو إليه الجاسد.

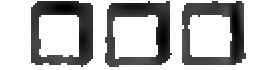
ولبيان مدى دقة الحاسـد، وإمعانه في بيـان ما بالكتاب من أخطاء وكشف ما به من عيوب جعله كأنه مكان فسيح متسع له حدود وفواصل، وقد جاب الحاسـد كل شـبر فيه حتى وقف على حدوده. وهو يستخدم حواسـه وجوارحـه في ذلك؛ فقـد ردد عينه مرات ومـرات، وراجع الفكر فيما ينوى قوله، ثم جعل أدوات نقض العمل كأنها حبال، وهذه الحبال لا تصطاد ولا تقتنص أشـياء مادية، ولكنها تقتنص العواطف. والعواطـف كأنها طيـور تصطاد ويراد بهـا- في هـذا الموضع- العاطفة بالإعجاب على هذا العمل، ثم يصـور عقول الحاضرين كأنها غَنَم وهو يرعاها، ويسيّرها كيف يشاء بحجته وأدلته وبراهينه، ثم يصور ذلك كله سلماً يرتقى به إلى غرضه الأساسى، ويصل به إلى مقصوده الحقيقى

---

(١) رسائل الجاحظ: (فصل ما بين العداوة والحسد) ١/ ٣٥١- ٣٥٢.

الـذى هو ذم المحســود وإظهار عيوبه، ويصور خدع المحســود كأنها آدميون صرعى على بساط حجته.

لقد لجأ الجاحظ إلى هذه البلاغة، والتصوير الدقيق للحاســد، لبيان حقيقته وكشــف طويتــه فكان دقيقــاً كل الدقة بليغا لَبِقــاً، وقد وضع الكلمات فى مواضعها الصحيحــة، وصاغ منها القوالب التى صب فيها معانيه، واســتخدم المجاز فى موضعه الصحيح، فلم نر صورة فى غير ما وضعت له، ولم يســتخدم البديع الذى ربما أحدث جرســاً موسيقياً ألهى عن فهم المعانى إلا فى أضيق الحدود وأقل المواضع.



حَقيقـة الحسد

والحسد أنانية وخِسّة ودناءة، فلا تحب نفسُ الحاسد أن يعلوَ عليها أحد، كما تحب أن تحوز الفضائل بأجمعها، والرياسة جلها والأموال لا تترك منها شيئا لغيرها، وهى أمور جبلت عليها النفس وطبعت لا تستطيع أن تنفـك عنها. يقول ابن قدامه المقدسـى: «اعلـم أن النفس قد جبلت على حب الرفعة، فهى لا تحب أن يعلوها جنسـها، فإذا علا عليها شـق عليها وكرهته، وأحبت زوال ذلك ليقع التسـاوى، وهـذا أمر مركوز فى الطباع؛ وقـد روى أبـو هريرة- ﷺ- عن النبى- ﷺ- أنه قـال: «ثلاث لا ينجو منهن أحد الظن والطِيَرة والحسد، وسأحدثكم ما المخرج من ذلك، إذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض، وإذا حسدت فلا تبغ».[1]

وفى تفسـير قولـه تعـالى: ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١ ﴾[2]. يذكـر القرطبـى أن قولـه (ليزلقونك) أى يعتانونك، يعنى يصيبون النبى بالعين.

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ص١٨٦، قدم له الاستاذ محمد أحمد دهمان، وعلق عليه شعيب الأرناؤط وعبد القادر الأرناؤط مكتبة دار التراث.

(٢) سورة القلم، الآية ٥١.

وكانت العين فى بنى أسد، حتى إن البقرة السمينة أو الناقة السمينة تمـر بأحدهم فيعاينها ثم يقول: يـا جارية خذى المكتل والدرهم فأتنا بلحم هذه الناقة، فما تبرح حتى تقع للموت فتُنحر.

وفى سبب نزول الآية: ذكر القرطبى أن رجلاً من العرب كان يمكث لا يأكل شـيئاً يومين أو ثلاثة، ثم يرفع جانب الخباء فتمر به الإبل أو الغنم فيقول: لم أر كاليوم إبلاً ولا غنماً أحسـن من هذه، فما تذهب إلا قليلاً حتى تسـقط طائفة هالكة. فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب لهم النبى- ﷺ- بالعين فأجابهم، فلما مر النبى- ﷺ- أنشد:

قد كان قومك يحسبونك سيداً   وأخـال أنـك سيـد معيـون

فعصم الله نبيه- ﷺ- ونزلت: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ﴾[1].

نستنتج من كل ما تقدم أن الحسد حقيقة مؤكدة، وأمر واقع، ومرض مركوز فى قلوب الحاسدين، وهو غَيْرة شديدة كامنة فى النفس وجذوة مشتعلة وأَثَرَة بجلب المنفعة أو إنتفائها من المحسود.

وقـد وضح الجاحظ ذلك بقوله: «وإنى ربما ألَّفت الكتاب المحكم فى الدين والفقه، والرسائل والسيرة، والخطب والخراج والأحكام، وسائر فنون الحكمة، وأنسـبه إلى نفسـى فيتواطأ علىّ جماعـة من أهل العلم

---

(١) راجع تفسير القرطبى المجلد العاشر ص ٦٧٣٣- ٦٧٣٤.

بالحسد المركب فيهم، وهم يعرفون براعته ونصاعته. وأكثر ما يكون هذا منهم إذا كان الكتاب مؤلفاً لملك معه المقدرة على التقديم والتأخير، والحط والرفع، والترغيب والترهيب، فإنهم يهتاجون عند ذلك اهتياج الإبل المغتلمة، فإن أمكنتهم حيلة فى إسقاط ذلك الكتاب عند السيّد الذى أُلِّفَ له، فهو الذى قصدوه وأرادوه، وإن كان السيد المؤلَّف فيه الكتاب نِحريراً[1] نقاباً، ونقريساً[2] بليغاً وحاذقاً فطنا وأعجزتهم الحيلة، سرقوا معانى ذلك الكتاب وألّفوا من أعراضه وحواشيه كتاباً، وأهدوه إلى ملك آخر، ومتّوا إليه به، وهم قد ذمّوه وثلبوه لمّا رأوه منسوباً إلىَّ وموسوماً بى[3].

وهكذا يضيف الجاحظ من الصفات الرديئة إلى الحساد- علاوة على حسدهم- الأنانية والسرقة والسطو على أعمال الآخرين، ثم إنه يصورهم بصور تناسب مرضهم الذى منه يعانون إذ يشبههم بالإبل المغتلمة فى الاهتياج، ولا يخفى على أحد ما تكون عليه هذه الإبل- والحالة هذه- من الوحشية وإيقاع الأذى على الآخرين.

واستخدم الجاحظ التضاد استخداما جيدا ليبرز به المعنى ويوضحه وذلك بين التقديم والتأخير، والحط والرفع، والترغيب والترهيب.

---

(١) النحرير: العالم الحاذق فى علمه (الوسيط ٢/ ٩٤٣).

(٢) النقريس: الطبيب الماهر، والدليل الحاذق (الوسيط ٢/ ٩٤٣).

(٣) رسائل الجاحظ ١/ ٣٥٠.

الحسد- إذن- أو العين حق؛ ثبت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة على ذلك، فأما بالكتاب؛ فما ورد بشأنه في القرآن الكريم من آيات متعددة. وأما في السنة فبالأحاديث المتعددة؛ خاصة ما رواه مسلم عن النبي- ﷺ- قال: «العين حق، ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين»[1]. وكان أبو سعيد- رضي الله عنه- يقول: إن النبي- ﷺ- كان يتعوذ من الجان وعين الإنسان. وروى الترمذي رضي الله عنه عن أسماء بنت عُميس أنها قالت: يا رسول الله إن بني جعفر تصيبهم العين أفأسترقي لهم؟ قال: «نعم. ولو كان شيء يسبق القضاء لسبقته العين»[2].

قال ابن القيم: «أبطلت طائفة ممن قل نصيبهم من السمع والعقل أمر العين، وقالوا: إنما ذلك أوهام لا حقيقة لها. وهؤلاء من أجهل الناس بالسمع والعقل، ومن أغلظهم حجابا، وأكثفهم طباعا، وأبعدهم معرفة عن الأرواح والنفوس وصفاتها وأفعالها وتأثيراتها.[3]

وكأن ابن القيم ينكر على منكري الحسد معتقدهم ويصفهم بأنهم لا يسمعون ولا يعقلون لأن حجبا كثيفة قد حالت بينهم وبين إدراك حقيقة الحسد والحاسدين.

---

(1) صحيح مسلم بشرح النووي ١٤/ ١٧، طبع الريان. ط. أولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

(2) أخرجه الترمذي في ٢٩ كتاب الطب (١٧) باب ما جاء في الرقية من العين ع/ ٣٩٥ وقال عنه حديث حسن صحيح، دار الحديث- القاهرة.

(3) زاد المعاد في هدى خير العباد لابن القيم ٣/ ١١٦ المطبعة المصرية ومكتبتها.

ولكن العقـلاء فقط - عند ابن القيم وعند غـيره- هم الذين يدركون حقيقتـــه، فيقول: «وعقلاء الأمم علـــى اختلاف مللهم ونحلهم لا تدفع أمر العين ولا تنكره وإن اختلفوا في سببه ووجهة تأثير العين».

ولقد كشـف لنا الجاحظ حقيقة الحسد والحاسـدين في أدبه؛ فبيّن أن الحاسـدين يتصفون بكل صفات الخِسّة والدناءة؛ فالكذب طبيعتهم، والنفاق سـجيتهم، والعداوة والبغض دَيْدَنهم، وكل مساوئ الأخلاق لباســهم. وقد ساق على ذلك الأدلة القاطعة والحجج الدامغة والبراهين الواضحــة، كما أورد القصــص الكثيرة، والأمثلة الوفيرة، والأشـعار الغزيرة. كل ذلك في أسلوب سهل، وألفاظ واضحة، وعبارات عذبة.

فالنفــاق الذي بيّن الجاحظ أنه من أخــس صفاتهم يتضح فيما أورده عن جماعة حسدوه لكتاب ألّفه، ورموه بسهام حقدهم على هذا المؤلف، على رغــم جودته وبراعته لكنهم أنكروا فعلتهــم الدنيئة عندما كانوا شــهوده، وقــد بين ذلك من خلال ما كتبه إلى مــن أُلّف له ذلك الكتاب بقوله: «فلما بلغت هذا الفصل من تأليف هذا الكتاب دخل عليَّ عشــرة نفر من الكُتَّاب قد شملهم معروفك، ورفع مراتبهم جميلُ نظرك، فهم من طاعتك والمحبة لك على حسب ما أوليتهم من إحسانك وجزيل فوائدك، فأفاضوا في حديثٍ من أحاديث الحسد فشعّب لهم ذلك الحديث شعوباً افتنــوا فيها- والحديث ذو شــجون- فما برحوا حتــى أتـتـنى رقعة

أناسِـيَةٍ[1] من الحساد فيها سهام الوعيد، ومقدمات التهديد والتحذير والتخويف؛ للطعن على ما ألّفت من الكتب إنْ أنا لم أضمن لهم الشركة فيمـا يجرى علـىّ، فدفعت رقعتهم إلى من قـرب إلىّ منهم، فقرأها ثم قال: «أبظلم يرومون النيل ويلتمسون الشركة فى المعروف؟ لَنَزْع الروح بالكلاليب أهون من بذل معروف بترهيب» وأنشأ يقول:

أبقـى الحـوادث من خليـــ لك مثـل جنـدلـة المـراجـم

قـد رامنـى الأعـداء قبـــ ـلك فامتنعـت عن المظالـم[2]

فمع أن الحاسـد يعرف تماماً أنه واحد من الحسـاد العشرة، إلا أنه يحاول أمام المحسـود تبرير موقفه بدفع التهمة عنه، ولذا يدعو على الحساد- وهو واحد منهم- ويقول كلمة الحق أمام محسوده؛ لأنه أمامه بينمـا هو الطاعن من الخلف، أو واحد ممـن طعنوا، ويأتى بالعبارات

---

(١) أناســى: جمع إنسان وأصله أناسين (عن المعجم الوسيط. مادة (ء ن س) وفى التنزيل العزيز: (ونسقيه مما خلقنا أنعاما واناسى كثيرا) سورة الفرقان الآية ٤٩.

(٢) رسائل الجاحظ ١/ ٣٦٨ والبيتان قالهما معاوية بن أبى سفيان وكان قد مرض فأرجف به مصقلة بن هبيرة؛ فحمله زياد إلى معاوية وكان قد شـفى فأخذ بيد مصقلة بشدة وقال: وأنشد هذه الأبيات وبعد البيتين:

صلبا إذا خار الرجـا ل أبل ممتنع الشكائم

انظر: الأمالى لأبى على القالى ٢/ ٣٤٥ الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٥م.

وانظر: شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنبارى ص٣٢٩ تحقيق عبد السلام هارون. ط. خامسة. دار المعارف ١٩٩٣م.

التى يستنكر فيها هذه الفعلة الدنيئة، كى يبعد التهمة عن نفسه فهو منافق واضح النفاق.

لم يكتف الجاحظ بكشف ألاعيب وحقد واحد من الحساد العشرة لكنه أراد أن يكشف عن باطنهم، ويبين نفاقهم، وكأنه يرسم صورة صادقة حية لطبيعة نفس الحاسد من خلال نماذج عشرة من الناس.

قال الجاحظ: ودفعها- أى الرقعة التى أتته- إلى من قرب منه فقرأها. وقال الثانى: صكه جلمود لكل مرعدٍ حسود يمتطر العرف بالتهديد خلِّ الوعيد، يذهب فى البيد وأنشأ يقول:

أبرق وأرعد يا يزيد فما وعيدك لى بضائر[1]

وبنفس الأسلوب الذى تحدث به الأول، رأينا الثانى ينهج نهجه ويسير على شاكلته؛ فهو يدعو على الحاسد حتى يبعد التهمة عن نفسه ويأتى بالأدلة والبراهين على براءته إذ يتمثل ببيت الكميت[2] ابن زيد، ومعناه أن الحاسد مهما أوتى من طاقة يحسد بها فلن يضير محسوده ولن يؤثر فيه.

وكأن الجاحظ يوقف الحساد واحداً واحداً ليسمع منهم ويعلق عليهم، وبين السماع والتعليق يورد نماذج أدبية يستشهد كل حاسد بها على ما يقول.

---

(١) رسائل الجاحظ ٢/ ٣٦٨.

(٢) كما فى اللسان مادة (برق، رعد) وشرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ص ٣٢٩.

قال الجاحظ: ودفعها إلى الثالث فقرأها وقال: سـألوا ظلماً، وخّوفوا هضما لقوا حربا ولقيت سلماً. وأنشأ يقول:

زعم الفرزدق أنْ سيقتل مربعاً   أبشر بطول سلامة يا مربع[1]

ومعنـى ظلمـا أى إنهم يطلبـون عائدا ليس من حقهـم- وهو واحد منهم- وخوفوا هضما أى إنهم أخافوه يريدون هضم حقه.

والجاحظ يأتي بهذه المعانى فى عبارات قصيرة متناسقة ذات جرس موسيقى سـببه اتحاد نهايات الكلمات (ظلماً.. هضماً، حرباً.. سلماً). على ما بين الأوّلين من ترادف والثانيين من تضاد. ثم يستشهد بعد ذلك ببيت جرير، وهو فى نفس المعنى السابق.

قـال الجاحظ ودفعهـا إلى الرابع فقرأها وقال: «قـولُ الذليلِ وبَوْلُه سيّان».

وأنشأ يقول:

ما ضر تغلب وائـل أهجوتهـا   أم بُلْت حيث تناطح العنزان[2]

ودفعهـا إلى الخامـس فقرأها وقال: نهيق الحمـار، ودم الأعيار[3] جُبَارٌ جُبَار[4] وأنشأ يقول:

---

(١) رسائل الجاحظ ٣/ ٣٦٨- ٣٦٩.

(٢) البيت قاله الفرزدق فى هجاء جرير وانظر ديوان الفرزدق ٨٨٢ والبيان والتبيين للجاحظ ٣/ ٣٤٨ والخانجى.

(٣) الأعيار: جمع مفرده عار وهو كل ما يلزم منه سبة أو عيب. الوسيط (ع. ى. ر).

(٤) الجبـار: الهـدر، وهو ما لا قصاص فيه ولا غـرم. يقال: ذهب دمه جبارا=

ما أبالى أنَبَّ[1] بالحزن تيسٌ   أم لحانى بظهر غيب لئيم[2]

شــبّه كلام الحاسدين بنهيق الحمار والله تبارك وتعالى يقول: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾[3]، وهو تشــبيه مناسب لحال الحاسد وصوته الذى لا يرجى منه خير، ولا يأتى منه منفعة.

ودفعها إلى السادس فقرأها وقال: «إذا علقتك الأمجاد، فلْيَهُن عليك الحساد وأنشأ يقول:

إذا أهل الكرامة أكرمونــى   فلا أخشى الهوانَ من اللئام

ودفعها إلى الســابع فقرأها وقــال: «كيف يخاف الصرعة من هو فى ذى المَنَعَة» وأنشأ يقول:

كم تنبحون وما يغنى نباحكــمُ   ما يملك الكلب غير النبح من ضرر

ودفعها إلى العاشــر فقرأها وقال: «نوكى هلكى، لم يعرفوا خبرك، ولا ردوا أمرك، وأنشأ يقول:

فلو علم الكلاب بنو الكلاب   بحالك عند سيدنا لذلّــوا[4]

عشــرة أشخاص مرضى بالحســد يأخذهم الجاحظ عينة لنوعيات البشر المختلفة، الذين يخضعون لظروف واحدة ومرض واحد، وكأنه

=الوسيط (ج ب ر).

(١) نب: صاح.

(٢) الرسائل: ١/ ٣٦٩.

(٣) سورة لقمان الآية ١٩.

(٤) الرسائل: ١/ ٣٦٩.

فى مختبر من المختبرات، يأخذ العينات ويجرى عليها التجارب ليخلُص أخيراً بنتيجة حتمية واحدة هى أن الحسد مرض خطير جداً، وأن دورته فى جسم الإنسان- أياً كان- وأثره وسلبياته واحدة؛ ولذا فإنه ينبه الناس إلى خطورة الحاسد ويشير إليه بأوصافه التى لا تنفك عنه ليُعرّفه ويعرّيه ويكشف أساليبه وخداعه وحسده فيقول: «وقلت: إنك ربما غلطت فى أمره لما يظهر لك من بره ولو كنت تعرف الجليل من الرأى، والدقيق من المعنى، وكنت فى مذاهبك فطنا نقاباً، ولم تك فى عيب من ظهر لك عيبه مرتاباً، لاستغنيت بالرمز عن الإشارة، وبالإشارة عن الكلام، وبالسر عن الجهر، وبالخفض عن الرفع، وبالاختصار عن التطويل، وبالجمْل عن التفصيل، وأرحتنا من طلب التحصيل»[1]. وهذه وصية للإنسان أن يكون دقيقاً فى ملاحظته، وأن يكون فطنا فى التعامل مع الآخرين، خاصةً الحساد منهم، وأن يعرف كيف تجرى الأمور من حوله؛ فمن ظهر منه عيب فلابد أن يُبحث أمره..كما أنه يجب عليه أن يلحظ تصرفات الناس من حوله فلا يفوته رمز أو حتى إشارة إلا ويحللها ليقف على ما يقصد صاحبها منها، وإذا كرهه أو نفر منه يبحث عن سبب ذلك وسيجد أنه الحسد.

---

(١) الرسائل: ٣/ ١٨.

وقد استخدم الجاحظ في هذه العبارة البديع غير المتكلف؛ لإبراز المعاني وتوضيحها؛ فلفظ الجليل يطلق على الأمر القليل والكثير من الألفاظ التي تفيد المعنى وضده، واستخدم للمعنى لفظ (الدقيق) ليناسب القليل من المعاني، كما استخدم صيغة المبالغة (فعّال) لإفادة الاستمرارية في الصفة والمبالغة فيها.

وجاء الجاحظ بالمترادفات لتثبيت المعاني وتقويتها في نفوس السامعين؛ فالرمز؛ إشارة، والإشارة رمز يقال: رمز إليه رمزاً، أومأ وأشار بالشفتين أو العينين أو الحاجبين أو أي شيء كان[1].

كما أن الإشارة يمكن أن تكون كلاماً، وقد سمع عن العرب أنهم كانوا يقولون قال بيده أو قال برأسه.

وظهرت براعة الأديب الكبير في استخدام، التضاد أروع استخدام من غير تكلف كما هو واضح بين: السر والجهر. والخفض والرفع. والاختصار والتطويل. الجَمْل والتفصيل.

والجاحظ – رحمه الله– لا ينخدع بكلام الحاسدين، ولا تروقه دعواتهم على الحساد، ولايصدق ظاهرهم أمامه؛ فإن ظاهرهم لا يؤخذ به؛ لأنهم منافقون، والأهم من ذلك ما تخفيه نفوسهم، وما تكنه صدورهم متمثلا ذلك في أقوالهم وأفعالهم وألوان وجوههم وتصرفاتهم

---

(١) المعجم الوسيط: مادة (ر م ز).

إزاء محسوديهم. وهو لا يريد أن يعرف ذلك لنفسه فقط وإنما يُعرّفه كل الناس حتى يتجنبوا سهام حُسّادهم فيقول: فإذا أردت أن تعرف آية مصداقه فادْنِيَنّ إليه من يُهينك عنده، ويذمك بحضرته، فإنه سَيَظْهَر من شأنه لك ما أنت به جاهل، ومن خلاف المودة ما أنت عنه غافل[1].

وبطبيعة الحال فإنه ينطوى على نفس خبيثة دنيئة ومن ثم فإنه لا يفتر عن سب محسوده وقذفه، وشتمه ورجمه بكل ما أوتى من ألفاظ مبتذلة لا يمنعه دين ولا خلق فى كل ما يقول، كما أنه سيهجم على محسوده فى غيبته؛ بأن يُخَطِّئ له كل آرائه حتى ولو كانت صحيحة؛ يقول الجاحظ: «ومتى رأيت حاسداً يصوِّب لك رأيا إن كنت مصيباً، أو يرشدك إن كنت مخطئاً، أو أفصح لك بالخير فى غيبته عنك، أو قصر فى غيبته لك»[2]. فهو- وهو أمام محسوده- يخطئ كل آرائه، ولا يرشده إلى الصواب إن كان يعرفه، وفى غيبته عنه يغتابه ويذمّه، ويصفه بصفات سيئة سواء أكانت فيه أم لم تكن. وقد سئل رسول الله- ﷺ- عن الغيبة فقال: «هى ذكرك أخاك بما يكره. قالوا يا رسول الله أرأيت إن كان فيه ما أقول قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته»[3].

---

(١) رسائل الجاحظ ٣/ ١٦.

(٢)نفس المصدر ٣/ ١٧- ١٨.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى ١٦/ ١٤٢ طبع الريان ط. أولى ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧.

ويبين الجاحظ أن حسد الحساد لا يأتى فقط عند اللقاء أو فى ظروف خاصة، كلا فإن الحاسد دائم الحسد لمحسوده لا يغفل عنه ولا يفتر فيقول: «وهو ألحّ[1] فى حسده لك من الذباب وأسرع فى تهْريقك من السيل إلى الحَدُور»[2].

وقد شبه الجاحظ الحاسد فى هذا الموضع بالذباب، ووجه الشبه الإلحاح فى كل من المشبه والمشبه به، وقد ذكر شيئا عن الذباب وإلحاحه فى موضع آخر إذ يقول: «فأما الذى أصابنى أنا من الذباب، فإنى خرجت أمشى من عند ابن المبارك أريد دير الربيع، ولم أقدر على دابة، فمررت فى عشب ونبات ملتف كثير الذُّبَّان فسقط ذباب من ذلك الذبان على أنفى فطردته، فتحول إلى عينى. فزدت فى تحريك يدى، فتنحى عنى بقدر شدة حركتى وذبِّى عن عينى، - ولذباب الكلأ والغياض والرياض وقع ليس لغيرها- ثم عاد إلىّ فعدت عليه، ثم عاد فعدت بأشد من ذلك. فلما عاد استعملت كمِّى فذببت به عن وجهى. ثم عاد وأنا أحثُّ السير أؤمل بسرعتى انقطاعه عنى. فلما عاد نزعت طيلسانى من عنقى، فذببت به عنى بدل كمِّى، فلما عاود، ولم أجد له حيلة، استعملت العَدْو، فعدوت منه شوطاً لم

---

(١) الإلحاح على الشىء، المواظبة عليه، يقال: ألح السحاب: دام مطره، وألح عليه بالمسألة: ألحف. عن المعجم الوسيط (ل ح ح).

(٢) رسائل الجاحظ ٣/ ١٦.

أتكلف مثله مذ كنت صبياً، فتلقانى الأندلسى فقال لى: ما لك يا أبا عثمان؟ هل من حادثة قلت: نعم أريد أن أخرج من موضع للذبان فيه سلطان. فضحك حتى جلس وانقطع عنى، وما صدقت بانقطاعه عنى حتى تباعد جداً[1].

هذا هو إلحاح الذباب كما صوره الجاحظ، وهو يجعل إلحاح الحاسد مثله. ووجه الشبه بين الحاسد والذباب، فى تصورى أن الذباب حشرة قذرة لا تعيش إلا حيث يعلم الجميع، فى بيئة فاسدة غير نظيفة، وكذا الحاسد فإنه يعيش بعيداً عن دينه لا يعرف قدر ربه بل إنه ليعارض خالقه فيما يمنُّ به على عباده ومن ثم فإنه فى بيئة داخلية كالبيئة التى يعيش فيها الذباب. بل ربما كان إلحاح الحاسد فى حسده أشد من إلحاح الذباب؛ ولذا فإنه استعمل أفعل التفضيل (ألَحّ) الذى أفاد زيادة إلحاح الحاسد على إلحاح الذباب، ذلك لأن الذباب يتطفل ويقترب من النظافة ربما عن طريق الخطأ أو الجوار. أما واقع الحاسد وبيئته التى يعيش فيها، فإنها لا تنفك عن طبيعتها أبداً.

وامتداداً لبيان حقيقة الحاسد يبين الجاحظ أنه أسرع فى تهريق محسوده من السيل إلى الحدور؛ فحسده شديد جارف كهذا السيل الذى ينحدر من أعالى الجبال إلى الوديان، فيأخذ أمامه كل شىء

---

(١) الحيوان للجاحظ ٣/ ٣٤٦.

ويقتلع الأشجار المثمرة، والزروع المخضرة، ولا يدع شيئاً أمامه للإنسان والإنسانية يُنتفع به. وهو تشبيه مناسب جداً حيث إنه يناسب طبيعة الحسد والحاسدين؛ فحسدهم جارف عاتٍ، يريدون أن يقضوا به على كل ما هو نافع للإنسان والإنسانية. فينظرون إلى الخير الذى أعطاه الله للمحسود بالغيظ والحقد والحنق، وتخرج السهام المسمومة من عيونهم فتقضى على كل ما هو نافع من المال أو الولد أو أى مظهر من مظاهر الخير.

بل إن خطر الحاسد أشد وأعتى من خطر السيل، وقد عبر الجاحظ عن ذلك باللفظ (أسرع).

والمصدر (تهريق) وفعله هرّق يفيد سيلان دم المحسود، وهو صريع على أرض الظلم والفساد التى يعيش عليها القاتل الملعون (الحاسد).

وقد ذكر الأستاذ عبد السلام هارون فى تحقيقه أن اللفظ (تهريقك) ورد فى نسخة أخرى (تمزيقك)[1] وهو- أيضاً- يفيد نهاية حياة المحسود وتمزيق جسده وتقطيعه إرْباً إرْبا على يد حاسده بما يصيبه من حسد.

ومهما بذل المحسود من محاولات لإرضاء الحاسد واستجلاب حبه له، فلن يفلح مهما أوتى من وسائل وحيل، يقول الجاحظ فى أسلوب ساخر.

---

(١) رسائل الجاحظ بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ٣/ ١٦ طبعة الخانجى. ط. أولى ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.

(... وإن رفعت القذى عن لحيته، وسويت عليه ثوبه فوق مركبته، وقبّلت صبيّه بحضرته، ولبست له ثوب الاستكانة عند رؤيته، واغتفرت له الذَّلَّة، واستحسنت كُلَّ ما يقبُح من جهته وصدّقته على كذبه، وأعنته على فجرته ...).

هكذا يعرض الجاحظ كل هذه الأساليب والطرق والحيل لاستجلاب عطف الحاسد، وجعله ينسى حسده لمحسوده، ولكن هيهات، وفي نفس الوقت يصفه الحاسد بعدة صفات مذمومة، في صور متعددة (وإن رفعت القذى عن لحيته) كناية عن أن الحاسد شخص قذر تشمئز منه الناس، وقذارته في وجهه. وقوله: (واغتفرت له الذلة). كأن أفعاله وتصرفاته ذلل وخطل. وقوله: (واستحسنت كل ما يقبح من جهته) كناية عن أنه لا يأتي منه إلا كل قبيح.

كما أنه لا يخفى أثر اتحاد نهايات الكلمات: لحيته، مركبته، صبيته، بحضرته، رؤيته. قد أعطت جرساً موسيقياً عذباً من اتحاد التاء والهاء في كلٍ منها، وأدى الانفثاء الناتج عن حرف الهاء ارتياحاً في النفس واطمئناناً.

وبعد أن أورد جملة ذات نهاية مختلفة عن سابقتها (واغتفرت له الذلّة) رجع إلى نهايات الجمل الثلاث السابقة بنهاية مشابهة لها بقوله (واستحسنت كل ما يقبح من جهته). فأعاد ما كان قد انقطع من جرس موسيقي، وقد أدى هذا الانقطاع ذو الفترة الوجيزة إلى التنبيه

واليقظة؛ كمن يستمع إلى إيقاع معين فينقطع هذا الإيقاع فترة فيثير ذلك انتباه السامع ويدعوه إلى اليقظة لاستيعاب المعنى وتوضيح الفكرة.

وليسَ هذا شأن الحاسد القريب الذى يرى محسوده رأى العين دائماً، وإنما حقيقة الحاسد واحدة؛ وهى مهما تباعد المكان فإنا نرى الحاسد يسلك مع محسوده المتباعد عنه نفس المسلك كما يقول الجاحظ: «فقد رأينا وشاهدنا من كان يسكن العراق وينتحل العلم والأدب، انتهى إليه خبر مشاركٍ له فى الصناعة من أهل خُرَاسَان وجنبة بلخ من اتساق الرياسة فى بلده، وجميل حاله، ونبيل محله عند أهل مِصره، وطاعة العامة له، وترادف الناس عليه، فطار قلبه فَرَقاً، وأخذته الأرباء، وتنفس الصعداء وانتفض انتفاض المفلس المطور»[1]. فجعل الجاحظ قلب الحاسد طائراً يطير من شدة الفزع لا يستقر ولا يهدأ؛ استعارة جميلة تصور الطبيعة القلقة للحاسد، كما أن الأرباء بمعنى تواتر النفس والنهيج، مفردها (رَبَو)، جعلها شيئاً بشعاً يأخذ الحاسد وينقله من مكان إلى مكان، لأن الحاسد ينتقل من حال إلى حال، ولذا فإنه نقل قول من قال: « .. لم ير ظالماً أشبه بمظلوم من حاسد نعمة، فإن نَفَسَه متصل، وكربه دائم، وفكرته لا تنام.»[2].

---

(١) الرسائل ١/ ٣٤٨.

(٢) المصدر نفسه.

ومن ثم فإنه يستنكر على من ينتظر الخير من الحاسد؛ لأنه لا يأتى منــه خير أبداً فيقول: «أتطلب- ويحك- أثــراً بعد عين، أو عطراً بعد عــروس، أو تريــد أن تجتنى عنباً من شــوك، أو تلتمس حلب لبن من حائل»[1]. فإذا وُجد إنســان ينتظر خيراً من حاســد فإن الجاحظ يبعث إليه بهذه الرســالة العاجلــة وفيها بعض صفاته: «إنــك إذن أعيا من باقل، وأحمق من الضبع، وأغفل من هرم.»[2].

ولكن هل ينتقل الحســد من مكان إلى آخر من غير انتقال الحاســد؟ وهل يكون له أثر إذا كان الحاســد فى بلد والمحســود فى بلد آخر كما ذكر الجاحظ؟.

يقــول ابن القيم- فى هذا الصــدد- «.... والتأثير غير موقوف على الاتصالات الجسمية كما يظنه من قل علمه ومعرفته بالطبيعة والشريعة، بل التأثير يكون تارة بالاتصال، وتارة بالمقابلة، وتارة بالرؤية، وتارة بتوجيــه الروح نحو من يؤثر فيه، وتارة بالأدعية والرقى والتعوذات، وتــارة بالوهم والتخيل[3]. فلا يشــترط ابن القيم مكانــا معينا أو وقتا، بــل يرى أن أثر الحســد يمكن أن يتحقق فى أى مــكان بأى كيفية، بل إنــه يذهب إلى مــا هو أبعد من ذلك إذ يقول (ونفــس العائن لا يتوقف

---

(١) نفس المصدر ٣/ ٩٣.

(٢) نفسه ٣/ ٢٠.

(٣) زاد المعاد ٣/ ١١٨.

تأثيرها على الرؤية بل قد يكون أعمى فيوصف له الشـيء فتؤثر نفسه فيـه وإن لم يره، وكثير من العائنـين يؤثر في المعين بالوصف من غير رؤيـة وقد قـال تعـالى لنبيـه ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ ﴾[1] وقـال: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾ ﴾[2][3].

وبذلـك يُثبت ابن القيم- رحمه الله- أن الحسـد يمكن أن يكون في الأباعد. وقد طلب الله من نبيه- ﷺ- أن يتعوذ من شر الحاسدين، كما أنـه نبـه إلى أن الكافرين يكادون أن يزلقـوه بأبصارهم ومنهم القريب والبعيد عنه. فدل ذلك على أن الحسد يمكن أن يؤثر في الأباعد.

(١) سورة القلم الآية ٥١.

(٢) سورة الناس الآيات ١- ٦.

(٣) زاد المعاد ٣٠/ ١١٧.

الحسد والعين

روى مسلم فى صحيحه أن النبى- ﷺ- قال: «العين حق ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين»[1]. وثبت عنه- ﷺ- أنه كان يتعوذ من الجان وعين الإنسان[2]. وهذا يدل دلالة قاطعة على أن العضو الذى يؤدى الحسد فاعليته به هو العين، وقد سُمى الحسد به مجازاً فيقولون «العائن» ويقصدون «الحاسد» ويقولون (فلان عان فلان) أى أصابه بعينه، يعنى حسده.

إذن فللعين أثر مادى ينتقل من الحاسد إلى المحسود. وقد فسر ابن القيم سبب هذا التأثير أو كيفية تأثير العين فى المحسود بقوله: إن العائن إذا تكيفت نفسه بالكيفية الرديئة انبعث من عينه قوة سمية تتصل بالمعين، فيتضرر قالوا: ولا يستنكر هذا، كما لا يستنكر انبعاث قوة سمية من الأفعى تتصل بالإنسان فيهلك. وهذا أمر قد اشتهر عن نوع من الأفاعى أنها إذا وقع بصرها على الإنسان هلك، فكذلك

---

(١) صحيح مسلم شرح النووى ١٤/ ١٧١ طبع الريان ط. أولى سنة ١٤٠٧هـ. ١٩٨٧م.

(٢) زاد المعاد ٣/ ١١٧.

العائـن[1]. وقالت فرقـة أخرى: لا يسـتبعد أن ينبعث من عين بعض الناس جواهر لطيفة غير مرئية فتتصل بالمَعِين وتتخلل مسـام جسـمه فيحصل له الضرر.

ورد ابن القيم بشـدة على منكرى هذه التأثيرات والذين قالوا: إن الله قد أجرى العادة بخلق ما يشـاء من الضرر عند مقابلة عين العائن لمن يعينه من غير أن يكون منه قوة ولا سـبب ولاتأثير أصلاً. فقال: وهذا مذهب منكرى الأسباب والقوى والتأثيرات فى العالم، وهؤلاء قد سـدوا على أنفسـهم باب العلـل والتأثيرات والأسـباب وخالفوا العقلاء أجمعين[2].

وابـن القيم بهذا يكـون قد حكم على منكرى أثر العين فى الحسـد بعدم الفهم والإدراك للأسـباب والمسـببات من حولهـم. وأخيراً فإنه يتهمهم بالتخلف والجهالة، ثم يسـتطرد ابـن القيم- رحمه الله- فى إثبـات أثـر العين على المعين ويـبرر حجته فى ذلـك بالأدلة القاطعة والبراهـين الواضحة فيقـول: (ولا ريب أن الله- سـبحانه- خلق فى الأجسـام والأرواح قوى وطبائع مختلفة، وجعل فى كثير منها خواص وكيفيات مؤثرة، ولا يمكن للعاقل إنكار تأثير الأرواح فى الأجسام فإنه أمر مشـاهد محسـوس وأنت ترى الوجه كيف يحمر حمرة شديدة إذا

---

(١) نفس المصدر.

(٢) زاد المعاد ٣/ ١١٧.

نظر إليه من يحتشمه، ويستحى منه، ويصفر صفرة شديدة عند نظر من يخافه إليه ...)[1] ويبين ابن القيم فى بحثه هذا أن التأثير كله ليس من العين ولكنه تأثير من الأرواح، وروح الحاسد مؤذية للمعين؛ فليست العين- إذن- هى بالذات مصدر الأذى للمحسود ولكن هناك قوة روحية خفية هى التى فعلت ذلك عن طريق العين، فكأن العين طريق فقط تنفذ منه السموم الروحية الخبيثة.

وهذا أمر- أعنى تأثير الأرواح- أكده الجاحظ ، وبين أن الأرواح هى السبب الرئيسى والمباشر فى تأثير الحسد، وجعله قوة خبيثة مؤثرة فيه فيقول: (والحسد نار وقوده الروح، لا تبوح أبداً أو يفنى الوقود.)[2] وفى هذه العبارة لا يقول: الحسد كالنار، أو حتى مثل النار وإنما جعله تشبيها بليغا أنه هو، وهذه النار لابد لها من مصدر تنشأ منه وتستمر به وهو الروح، فكأن الروح هى السبب وهى الأساس فى أمر الحسد كله كما ذكر ابن القيم فى العبارات السابقة.

والجاحظ يقول بأثر العين كعضو للحسد، ويرى ما رآه الآخرون فى ذلك إذ يقول: (ويقال الحسد لا يبدو فى العين، وعلى اللسان المقصور عند أهله المؤتلفين، والعداوة تبدو وتتنجم قرونها وينبسط لسانها عند

---

(١) زاد المعاد ٣/١١٨.

(٢) رسائل الجاحظ ١/ ٣٤٧.

الموافقين له والمخالفين عليه)[1]. وهو- هنا- يجعل للعداوة قرونا وكأنها ثور هائج يحطم كل ما حوله بقرونه، وهى صورة موافقة لطبيعتها وطبيعة صاحبها، كما أنه مرة أخرى- يجعل لها لساناً ينبسط وكأنها أفعى قاتلة، وهذه الصورة موافقة لمواصفات العداوة، والتى سنتحدث عنها بتفصيل فيما بعد.

وأما العين فجعلها الجاحظ مكاناً للحسد وأداته، ويظهر هذا من اللفظ (تبدو) أى إن العين هى مكان الحسد وليست سبباً له.

وفى العصر الحديث يتعرض لهذا الموضوع عالم جليل هو الشيخ محمد متولى الشعراوى فيحاول أن يثبت حقيقة الحسد ووجوده بما استحدثه العلم وأثبته الواقع، وهو- بادئ ذى بدء- يؤكد وجود الحسد فيقول: (والحسد مقطوع به، وصحيح مؤكد الوجود، لأنه ورد فى القرآن الكريم...: وهو شر من قوى الغيب التى تضر الإنسان....)[2]. ثم يقارن الشيخ بين الحسد وأثر القوى الدقيقة التى لا ترى بالعين المجردة فيقول: ... إن الشىء كلما كان دقيقا لا تراه العين كان أثره وفعله أكبر، وكان عنيفا فى فعله؛ فأدق الجراثيم مثلاً هى أعنفها فى التأثير فى الجسم، وهى أقواها فى مقاومة الدواء، وكلما ارتقينا

---

(١) رسائل الحاجظ ١/ ٣٥٦.

(٢) السحر، والحسد. محمد متولى الشعراوى/ ١٢٠ مؤسسة أخبار اليوم.

فى العلم واســتطعنا تكبير الأشياء مئات الألوف من المرات، أو ملايين المرات، اكتشــفنا جراثيم وأشــياء غاية فى الدقــة، وتأثيرها غاية فى العنف.... إذن فكوننا لا نرى شــيئا للحسد، فليس معناه أنه لا تأثير له أو أن تأثيره ضعيف)[1].

ومرة أخرى يقارن الشــيخ بين الحســد وبين قــوى أخرى لا تُرى بالعين المجردة ليثبت حقيقة الحســد فيقــول: إنه مع تقدم العلم تم اكتشاف أنواع عديدة من الأشعة، منها أشعة الليزر التى تم اكتشافها فى السنوات الأخيرة، وهى من أدق الوسائل للقياس، بل إنها تستخدم فى العمليات الجراحية الدقيقة، بحيث تتم العملية الجراحية بأشعة الليزر دون تدخل مشــرط الجراح ودون نزول قطرة دم واحدة .. ومع ذلك هــل يرى المريض الذى يعــالج أو تُجرى لــه العملية الجراحية بأشــعة الليزر هل يرى هذه الأشعة أو يعرفها وهى تدخل جسده؟... لا، ولكن تأثيرها داخل الجسد أقوى من تأثير مشرط الجراح). وهكذا يقترب الشــيخ من أمر الحســد، ويقر بوجوده، وحقيقته، بما أثبت بالدليــل القاطع والبرهان العملى، ثم يخلــص إلى هذه الحقيقة: إذن هناك شــىء خفى عن العين يســتطيع أن يدخل إلى الجسد ويفعل فيه أشــياء أكثر أثرا من مشرط الجراح، ما الذى يدريك أن عين الحاسد لا

---

(١) مصدر سابق ١٢١.

يخرج منها أشـعة أشد فتكاً من أشعة الليزر تدخل إلى جسدك وتفعل فيه أشياء وأنت لا تدرى[1].

وسواء ما ذكر ابن القيم أم الشعراوى من آراء، فإننا لا نستبعد خروج أشعة غير مرئية من عين الحاسد تكون هى القوة المدمرة فى المحسود، هذه الأشعة يوجهها الحاسد حيث يشاء وفى أى وقت يريد.

(١) مصدر سابق، ١٢٢.

الحسد فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة

أولاً: الحسد فى القرآن الكريم

لقد أنزل الله- تبارك وتعالى- القرآن هدى ونوراً، وشفاء لما فى الصدور وتبياناً لكل شىء وموعظة. وقد نبه الله الناسَ إلى القرآن أنه شفاء فى عدة مواضع منه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ (٥٧) قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ (٥٨) ﴾[1] والشفاء فى هذه الآية يقصد بها القرآن لأنه قدّم (موعظة). كما أنه شفاء لما فى الصدور من أمراض.

وقال- تعالى-: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[2] وقد قرن الله تعالى الشفاء بالرحمة فى هذه الآية الكريمة، لأن الشفاء- أيضا- رحمة من الله لعباده. وما أحوجنا إلى رحمة الرحمن فى الدنيا والآخرة، يسبقها شفاء لما ينتابنا من أمراض وعلل نفسية.

---

(١) سورة يونس الآيتان ٥٧، ٥٨.

(٢) سورة الإسراء الآية ٨٢.

وقال تعالى فى موضع آخر: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾[1] فهو شفاء للمؤمنين فقط وليس لغيرهم. والمؤمنون- وحدهم- هم الذين يستحقون هذا التكريم لأنهم آمنوا به وصدقوه وعلموا أنه منزّل بالحق من ربهم.

وإذا كان شأن القرآن ما ذُكر من أنه شفاء ورحمة للمؤمنين من كل الأمراض النفسية التى تصيب بعض أفراد المجتمع فتؤثر فيهم هم ومحسوديهم تأثيراً سلبيا يمتد فيشمل ضرره كل أنحاء المجتمع المسلم بالتخلف والجمود كما سنعرف فيما بعد.

من أجل ذلك ورد ذكر الحسد والحاسدين فى القرآن الكريم باعتبار الحسد مرضا، واعتبار الحاسد شرا مستطيرا، نعوذ بالله منه، كما ورد ذكر الحسد فى السنة النبوية المطهرة، فى معرض بيان الرسول الكريم لخطورة هذا الداء، ووصف الدواء له؛ إذ هو الرحمة المهداة من الله إلى الناس إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[2] وقال- تبارك اسمه- ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ

(١) سورة فصلت الآية ٤٤.

(٢) سورة الأنبياء الآية ١٠٧.

أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾[1] والرحمة مقترنة بالشفاء كما فى الآيات السابقة.

ومن ثم فقد ورد ذكر الحسد فى القرآن بصيغ متعددة، فورد بصيغة الماضى فى قوله تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾[2].

وورد بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾[3].

كما ورد بصيغة المصدر فى معرض كشف ما بداخل أهل الكتاب من غل وحقد وحسد على كل من صدق برسالة الخير والنور فقال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾[4].

وأورد القرآن ذكر الحاسد لكشفه والابتعاد عنه وتعليم الناس كيف يستعيذون بالله من شروره وذلك فى قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾[5].

---

(١) سورة التوبة الآية ١٢٨.

(٢) سورة الفلق الآية ٥.

(٣) سورة النساء الآية ٥٤.

(٤) سورة البقرة الآية ١٠٩.

(٥) سورة الفلق الآيات ١-٥.

موقف الجاحظ من آيات الحسد:

لقد استشهد الجاحظ ببعض من آيات الحسد في القرآن الكريم وبالأحاديث النبوية الشريفة في مواضع متعددة، قال الجاحظ:[1] وما أوتي المحسود من حاسده إلا من قِبَل فضل الله عنده، ونعمه عليه، قال الله عز وجل: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾[2]. وقد أورد هذه الآية ليستدل بها على سبب حسد الحاسد.

وفي معرض بيان درجة الحسد وما يتمناه الحاسد لمحسوده، قال الجاحظ[3]: والحسد عقيد الكفر، وحليف الباطل، وضد الحق، وحرب البيان، فقد ذم الله أهل الكتاب به فقال: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾[4].

وفي معرض بيانه لِلْغلّ وتعريفه له، وأنه نتيج الحسد ورضيعه وغصن من أغصانه[5]...... يبين أن الله سبحانه وتعالى امتن على عباده

(١) رسالة الحاسد والمحسود ٣/ ٤.

(٢) سورة النساء الآية ٥٤.

(٣) رسالة الحاسد والمحسود ٣/ ٤.

(٤) سورة البقرة الآية ١٠٩.

(٥) رسالة الحاسد والمحسود ٣/ ٢١.

فأدخلهم الجنة دار كرامته ولم يدخلوها إلا بعد نزع الغل من قلوبهم، لبيان أنها منزلة لا يستحقها إلا من طهر قلبه من كل هذه الأمراض الخبيثة؛ كالغل والحسد إذ يقول[1]: «ورأيت الله جل جلاله ذكر الجنة في كتابه، فجلّاها بأحسن حِلْيَة، وزيّنها بأحسن زينة، وجعلها دار أوليائه ومحلّ أنبيائه؛ ففيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. فذكر في كتابه ما منّ به عليهم من السرور والكرامة عندما دخلوها وبوأها لهم فقال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) ﴾[2].

كما أنه- في رسالة الحاسد والمحسود- استشهد بالآيات تلميحا وليس تصريحا؛ وذلك عندما طلب من المحسود ألا يكترث بالحاسد وألا يعيره اهتماما، فإنه مهما فعل معه فلن يفيد ذلك فيه شيئاً. فيخاطب المحسود قائلاً: (فما هذا العناء كأنك لم تقرأ المعوِّذة ولم تسمع مخاطبته نبيه- ﷺ- في التقدمة إليه بالاستعاذة من شر حاسد إذا حسد)[3]. في إشارة منه إلى قوله تعالى: « قل أعوذ برب الفلق...» الآيات.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الحجر الآيات ٤٥- ٤٨.

(٣) رسائل الحاجظ ٣/ ١٩.

ثانيا: الحسد فى السنة النبوية المطهرة:

وأما الحديث النبوى، فقد تناول موضوع الحسد كمرض خطير يصيب المجتمعات بالتخلف والتقهقر؛ فعن الزبير- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «دبّ إليكم داءُ الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء، وهى الحالقة، أما إنى لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين، والذى نفسى بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ألا أدلكم على ما تحابون به أفشوا السلام بينكم»[1]. فجعل الرسول الكريم البغضاء والحسد والأحقاد كأنها شفرة لا تزيل الشعر ولكنها تزيل الدين، وهنا إشارة لطيفة إلى أن الأعمال الصالحة مهما كثرت وزاد عددها فإن هذا الداء يزيلها ولا يبقى منها شيئاً، كما لا يبقى الموسى من الشعر مهما كثر. ثم يصف الرسول الكريم الدواء النافع، وهو إفشاء السلام لأن من شأنه أن يزيل العداوة والبغضاء التى فى القلوب.

وقد استشهد الجاحظ بصدر هذا الحديث فى رسالة الحاسد والمحسود فى معرض تعريفه للحسد، وبيان أنه داء خطير ومرض عضال إذ يقول: «وهو باب غامض وأمر متعذّرٌ وما ظهر منه فلا يداوى وما بطن فمداويه فى عناء ولذلك قال النبى ﷺ: «دب إليكم داء الأمم قبلكم، الحسد والبغضاء»[2]. فجاء الاستشهاد فى موضعه ووقع موقعه الصحيح، ودلّ

---

(١) انظر الجامع الصغير ٢/ ٤.

(٢) رسائل الجاحظ ٣/ ٤.

دلالـــة واضحة على ثقافـــة الجاحظ الدينية وإلمامه بالحديث الشــريف وحَسُـــن الاستشهاد به؛ فقد كان رحمه الله- مؤمنا حسن الإيمان، يرى أبداً فـــي الخلائق يد الخالق وحكمته. وســاعده اعتزاله في التفوق في الكلام وقرع الحج والاستدلال بالبراهين الدامغة......

وفي قول الرسول ﷺ (دبَّ) استعارة جميلة وصورة معبرة حيث إنه شــبه الحسد كأنه دابة تدب على الأرض؛ تشخيص للمعنوى في صورة محسوســة لتوضيح الفكرة، فلا يـدب إلا الدابة كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾[1].

والرســول الكريم بهذا التعبير يصور الحســد كأنه وحش كاسر أو أسد شرس، يأتى إلينا من مخلفات الأمم السابقة، وكونه يأتى من الزمن الماضى ومن الأمم الســابقة، ليجعله أشد ضراوة وعداوة، ويجعلنا أشد خوفا وفزعا منه، لعدم وقوفنا على طبائعهم، ومعرفتنا بأحوالهم.

وفي صورة أخرى ومشــهد آخر يصور الرســول الكريم الحسد بأنه نار مؤججة وقودها الأعمال الطيبة الصالحة، فيقول ﷺ فيما رواه أبو هريرة: «إياكم والحسد فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب».[2] يبدأ الرسول

---

(١) سورة هود الآية ٦.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب باب (في الحســد) حـ ٤ ص ٢٧٦ المكتبة العصرية.

بالتحذير منه بلفظه (إياكم) أى أُحذركم وذلك من دواعي شفقته على أمته ورحمته بهم وهو ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾[1]. والمحذَّر منه الحسد، وهو مرض يستحق التحذير منه. ثم يشبهه الرسول بالنار المؤججة التى تأتى على الأخضر واليابس؛ وما الأخضر واليابس إلا الحسنات والأعمال الصالحة التى يرجو الإنسان لنفسه منها النجاة فى يوم يجعل الولدان شيبا. ولكنها فى لحظة واحدة تكون رماداً وسرابا وكأن لمُ تكن، فالحسد قد امتد إليها بألسنته الملتهبة فأتى على كل شيء منها.

وقد أتى الرسول الكريم بالمشبه (الحسد) والمشبه به (النار) وأداة التشبيه (الكاف) ووجه الشبه (الإحراق) تشبيه متكامل الأركان وذكر أداة التشبيه- هنا- جاء بلاغة منه- ﷺ- لأن أمر النار وإحراقها مشاهد للجميع، فهى صورة لا تخفى على أحد فكأنه يقول كما رأيتم النار وإحراقها وكيف تلتهم وقودها، كذلك الحسد فإنه يفعل بالحسنات كذلك.

وقد نهانا الرسول الكريم عن الحسد فى أكثر من موضع؛ فقد روى مسلم فى صحيحه عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحاسدوا ولا تباغضوا، ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخوانا.»[2]

---

(١) سورة التوبة الآية ١٢٨.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى ١٦/ ١١٥ دار الريان للتراث ط. أولى سنة ١٤٠٧هـ. ١٩٨٧م.

وبين- ﷺ- أن الحسد سبب شقاء صاحبه وبلائه في الدنيا والآخرة بما رُوى عن أنس[1] -رضي الله عنه- أنه قال: كنا جلوساً عند رسول الله- ﷺ- فقال: «يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة». قال فطلع رجل من الأنصار ينفض لحيته من وضوئه؛ قد علق نعليه في يده الشمال، فسلّم. فلما كان الغد قال- ﷺ- مثل ذلك. فطلع ذلك الرجل، وقال له في اليوم الثالث، فطلع ذلك الرجل. فلما قام النبي-ﷺ- تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال له: إني لاحيت أبي، فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثا. فإن رأيت أن تؤوينى إليك حتى تمضى الثلاث فعلت. فقال: نعم. فبات عنده ثلاث ليال فلم يره يقوم من الليل شيئاً، غير أنه إذا انقلب على فراشه ذكر الله تعالى، ولم يقم حتى يقوم لصلاة الفجر. قال غير أني ما سمعته يقول إلا خيراً. فلما مضت الثلاث، وكدتُ أن أحتقر عمله، قلت يا عبد الله، لم يكن بيني وبين والدى غضب ولا هجرة، ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقول كذا وكذا. فأردت أن أعرف عملك، فلم أرك تعمل عملاً كثيراً فما الذى بلغ بك ذلك؟ فقال: ما هو إلا ما رأيت. فلما وليت دعانى فقال. ما هو إلا ما رأيت غير أنى لا أجد على أحد من المسلمين فى نفسى غشاً ولا

---

(1) إحياء علوم الدين للإمام أبو حامد الغزالى ٣/ ٢٠٥.

حسداً على خير أعطاه الله إياه. قال عبد الله: فقلت له: هى التى بلغت بك، وهى التى لا نطيق[1].

فكان خلو قلب الأنصارى من الأحقاد سبباً فيما أخبر عنه به رسول الله ﷺ أنه من أهل الجنة.

أما رغبة الإنسـان أن يحوز من الخير والفضـل مثلما هو موجود عند الآخرين من غير أن ينقص شـيئاً مما عندهم فليسـت حقداً ولا حسـداً، وإنمـا هي الغبطة. ونحن مأمورون بها، لما أخرجه الشـيخان والترمذى عـن ابـن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسـول الله- ﷺ- يقول: لا حسـد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل أعطاه الله تعالى مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار[2].

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد بإسـناد صحيح على شـرط الشيخين. ورواه البزار وسمى الرجل فى رواية له سعدا وفيها ابن لهيعة. وانظر فى ذلك كلهٰ (المغنى عن حمل الأسفار فى الأسفار فى تخريج ما فى الأحياء من الأخبار) وهو كتاب على هامش إحياء علوم الدين للغزالى. دار الغد العربى ١٩٩٦م.

(٢) الحديث رواه البخارى فى باب تمنى القرآن والعلم، وفيه لا تحاسـد إلا فى اثنـين وفيـه أيضا: يقول لو أوتينا مثل ما أوتى.هذا لفعلت كما يفعل ٩/ ١٠٤ صحيح البخارى. دار الشعب.

وروى البخارى فى باب الاغتباط فى العلم والحكمة: لا حسد إلا فى اثنين رجل آتاه الله مالا فسـلطه على هلكته فى الحق ورجل آتـاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها. صحيح البخارى ١/ ٢٨ دار الشعب. وانظر فتح البارى للحديث الأخير ١/ ١٦٥.

وقد ذكر الجاحظ هذا الحديث في نهاية رسالة (فصل ما بين العداوة والحسد)[1] وقدم له بقوله: ولا نعلم الحسد جاء فيه شيء أكثر من حديث روى عن النبي- ﷺ-........ وساق الحديث.

أما في رسالة الحاسد والمحسود[2] فإنه يأتي بالأدلة الكثيرة من القرآن الكريم ومن السنة النبوية المطهرة، ولا يكاد يسوق أمراً في الحسد سواء في تعريفه أم تاريخه أم العلاج منه أم أى شيء آخر إلا ويأتي بالدليل من القرآن والسنة بخلاف رسالة (فصل ما بين العداوة والحسد) التي لم يأت بحديث غير ما ذكر وأقرّ بأنه لا يوجد نص آخر في الحسد غيره، ومن القرآن لم يأت بآية واحدة طوال الرسالة عدا ما جاء به من جُمَل تحمل معاني بعض الآيات الكريمة بما يجعلنا نقول إن رسالة (فصل ما بين العداوة والحسد) كانت من بدايات عمله في مقتبل عمره، وأن الأخرى كانت في نهايتها.

---

(١) رسائل الجاحظ ١/ ٣٧٢.

(٢) ضمن رسائل الجاحظ ٣/ ١.

تاريخ الحسد فى أدب الجاحظ

الحسد من الأمراض الإنسـانية الخطيرة، التى واكبت وجود الإنسان منذ خلقه الله- جلت قدرته- فى السماء إلى أن نزل إلى الأرض، واسـتمر معه فى الأرض على اختلاف الأحقاب التاريخية، والفترات الزمنية، وعلى اختلاف الأجناس والبيئات، والظروف والملابسـات، وعلى اختـلاف الملل والديانات إلى يومنا هـذا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وفى ذلك منشـؤه إلى حكمة الله تعالى فيما خلق عليه العباد مـن تفـاوت فى كل أمر مـن أمورهم؛ فقد خلق الله السـليم والسـقيم، والغنى والفقير، والجميل والدميم، وذا السلطان والجاه وغيره والجاهل والمتعلـم، والعاقـل والمعتوه إلى غير ما خلق الله من أصناف البشـر على اختلاف أقدارهم وتلك سـنة الله فى خلقه ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾[1].

كما خلق الله الإنسان الذى منه المؤمن والكافر، وحتى درجات الإيمان متفاوتة منها القوى ودونه، ونماذج الحسـد على امتداد التاريخ كثيرة جـداً لا تكاد تحصى ولا تعد؛ ففى كل بيئة من البيئات وكل تجمع من التجمعات البشـرية نرى الشر المستطير يطل بأنيابه الشرسة ومخالبه

(١) سورة فاطر الآية ٤٣.

العاتية وقرونه الشيطانية التى لا يكاد ينجو منها أحد إلا من حفظ الله ولجأ إلى علاجه كما رسمه القرآن ووضحته السنة الشريفة كما سنعرف فيما بعد.

وإذا كنا نتعرض لتاريخ الحسد على هذه الصفحات فإننا نأخذ منها أمثلة على امتداد التاريخ البشرى منذ أن خلق الله آدم- عليه السلام- وإلى ما كان من أمره إلى عهد رسول الله- صلى الله عليه وسلم- بما أخبرنا به القرآن الكريم وسنة سيد المرسلين وبما ذكره الجاحظ فى أدبه أو بالتحديد فى رسالتيه فى هذا الشأن.

الحسد فى السماوات

حسد إبليس لآدم

لم يكن الحسد وليد الكوكب الأرضى الذى نعيش عليه، وإنما ظهر أول ما ظهر فى السماء وتمثل ذلك فى حسد إبليس- يلعنه الله- لأبينا آدم-عليه السلام- ولقد ذكر الجاحظ فى رسالة الحاسد والمحسود هذا الأمر أول ما ذكر عن تاريخ الحسد وسببه إذ يقول: ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾[1] فلعنه وجعله إبليسا، وأنزله من جواره بعد أن كان أنيسا، وشوّه خلقه تشويها، وموّه على نبيّه تمويها، نسى به عزم ربه، فواقع الخطيئة، فارتدع المحسود وتاب عليه وهدى، ومضى اللعين الحاسد فى حسده فشقى وغوى»[2].

إن الجاحظ يشير بهذه العبارة إلى ما كان من أمر سيدنا آدم- عليه السلام- وإبليس- عليه اللعنة- فى السماء قبل أن توجد حياة بشرية على ظهر الكوكب الأرضي وسبب ذلك- فيما حكاه القرآن-: فى قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ

---

(١) من الآية ١٢ من سورة الأعراف، الآية ٧٦ من سورة ص.

(٢) رسائل الجاحظ ٣/ ٦.

لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[1].

قال القرطبى: الأسماء– هنا– بمعنى العبارات فإن الاسم قد يطلق ويراد به المسمى كقولك: زيد قائم، والأسد شجاع. وقد يجرى الاسم فى اللغة مجرى ذات العبارة وهو الأكثر فى استعمالها ومنه قوله تعالى: «وعلم آدم الأسماء كلها» على أشهر التأويلات ومنه قول النبى– ﷺ–: «إن لله تسعة وتسعين اسما» ويجرى مجرى الذات، يقال: ذات ونفس وعين واسم بمعنى . . .»[2].

ومعنى ذلك أن آدم– عليه السلام– كانت له حظوة كبيرة ومكانة رفيعة عند خالقه، وقد أوجد له الله هذه المكانة عند الملائكة الذين أمرهم بالسجود له لتلك المكانة ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾[3] وكان هذا السجود سابقاً لتعليمه الأسماء كلها كما يقول ابن كثير[4].

---

(١) سورة البقرة الآيات ٣١– ٣٣.

(٢) تفسير القرطبى مجلد ١/ ٢٤١. دار الشعب.

(٣) سورة البقرة الآية ٣٤.

(٤) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ١/ ١٣٠. اختصار وتحقيق أحمد محمد شاكر. دار المعارف ١٩٥٦.

وأمْرُ الله للملائكة بالسجود كرامة عظيمة لآدم امتنّ بها حتى على ذريته. فلما صدر الأمر من الكبير المتعال، صدع الملائكة بالأمر، وعصى إبليس- يلعنه الله-، فسجدوا واستكبر حسداً وكفرا، وقال أنا ناريّ وهذا طينيّ، وكان هذا بدء الذنوب الكُبَرى؛ استكبر عدو الله أن يسجد لآدم عليه السلام[1]. وهذا معنى قول الجاحظ: «أول خطيئة ظهرت في السموات» والخطيئة؛ هي الذنب العظيم، يقول الراغب الأصفهاني: «..... والخطيئة والسيئة يتقاربان، لكن الخطيئة أكثر ما تقال فيما لا يكون مقصوداً إليه في نفسه، بل يكون القصد سببا لتولد ذلك الفعل منه؛ كمن يرمي صيداً فأصاب إنسانا أو شرب مسكراً فجنى جناية في سُكْرِه[2].

وأما في الأرض فقد عبر الجاحظ عن ذنب الحسد فيها بقوله (معصية) مشيراً بذلك إلى ما كان من حسد ولدى آدم على ما سنبينه، وعبر الجاحظ بالمبني للمجهول بقوله: (خُصَّ) لبيان أن الحسد من كسب الإنسان نفسه لا يجبره أحد عليه، وقوله: (أفضل الملائكة) لبيان أن الحسد يمكن أن يصاب به أي أحد مهما كانت منزلته فكانت النتيجة العصيان.

---

(١) نفس المصدر السابق ١/ ١٣٤.

(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، مادة (خ ط ء). دار المعرفة. بيروت- لبنان.

وأما المقايسة؛ فيقال: قايس الشيء قياساً ومقايسةً: قدّره، وقايس الشيء بكذا وإلى كذا: قدّره به، وقايس فلاناً إلى كذا: سابقه[1].

وعلى هذا فإن إبليس- لعنه الله- يسابق ربه في تقدير الأمور، ولكن هيهات، واستكبر عن السجود لآدم حقداً وحسداً منه أنه مخلوق من النار وآدم من الطين، والنار أفضل. وعلى هذا فإن المتكبر في كل زمان ومكان يظن أن له فضلاً ومكانة على المتكبر عليه، ومن أجل ذلك فإنه يستحق ما حَل بإبليس (فلعنه وجعله إبليسا)؛ قال ابن منظور: أبلس من رحمة الله؛ أي يئس وندم ومنه سمى إبليس وكان اسمه عزازيل، وإبليس مشتق منه؛ لأنه أبلس من رحمة الله أى أويس منه، وقال ابن اسحق لم يصرف لأنه أعجمي[2]. واستحق إبليس بحسده وكبريائه ومقايسته لربه فى حكمه أن ينزل من المكانة المرموقة والمنزلة الرفيعة التى كانتْ له، وهكذا كل حاسد ومتكبر لا يستحق هبة الله له ومن ثم فإنه فى تقهقر مستمر وتأخر.

واختلف فى أصل إبليس؛ هل هو من الملائكة أو هو خلق آخر من الجن، فالذين قالوا إنه من الملائكة رُدّ عليهم بقول الله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾[3].

---

(١) المعجم الوسيط. مادة (ق ى س).

(٢) لسان العرب. مادة (ب ل س).

(٣) سورة الكهف من الآية ٥٠.

ومن قالوا إنه من الجن رُدّ عليهم بقول الله- سبحانه- ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾[1] والمستثنى من جنس المستثنى منه. وربما كان لفظ (جن) هو العامل المشترك بين الملائكة والجن أو الشياطين، هذا اللفظ الذى يعنى الاستتار والاختفاء وعدم الظهور، ولما كانت الملائكة والجن لهم نفس الخاصية فقد وجد اللبس بين مفهوم هؤلاء وهؤلاء. وكان تعدد الأقوال والآراء التى سوف نعرض لبعضها.

أورد القرطبى فى هذا الشأن ما حكاه الثعلبى عن ابن عباس: أن إبليس كان من حى من أحياء الملائكة يقال لهم الجن، خلقوا من نار السموم، وخلقت الملائكة من نور...... وكان إبليس رئيس ملائكة السماء الدنيا، وكان له سلطانها وسلطان الأرض وكان من أشد الملائكة اجتهاداً، وأكثرهم علماً، وكان يسوس ما بين السماء والأرض، فرأى لنفسه بذلك شرفاً وعظمة فذلك الذى دعاه إلى الكفر، فعصى اللهَ فمسخه شيطاناً رجيماً[2].

وهناك من يقول إنه من الجن وليس من الملائكة بدليل قوله الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟

---

(١) سورة البقرة الآية ٣٤.

(٢) تفسير القرطبى. مجلد ١/ ٢٥٢.

يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[1]. وهذه الآية صريحة في الفرق بين الجن والملك.

ثم إن إبليس له ذرية والملائكة لا ذرية لهم، قال تعالى: ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾[2] والذرية تحدث من التقاء الذكر بالأنثى، والملائكة لا أنثى فيهم لقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾[3] فإذا انتفت الأنوثة انتفى التوالد لا محالة فانتفت الذرية. والملائكة معصومون عن ارتكاب المعاصي والخطايا، وإبليس ليس كذلك، وخلق إبليس من النار على ما حكاه القرآن في قوله تعالى: ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾[4] والملائكة مخلوقون من النور؛ روى الزهرى عن عائشة عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار»[5].

---

(١) سورة سبأ الآيتان ٤٠، ٤١.

(٢) سورة الكهف الآية ٥٠.

(٣) سورة الزخرف الآية ١٩.

(٤) سورة الحجر الآية ٢٧.

(٥) راجع في كل ما تقدم مفاتيح الغيب للفخر الرازى ١/ ٦٥١- ٦٥٢. دار الغد العربى.

نستطيع من كل ما سبق أن نرجح الرأى القائل بأن إبليس ليس من الملائكة للأسباب التى ذكرناها كما نستطيع القول أن الاستثناء فى قوله تعالى: «وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس» استثناء منقطع وهو مشهور فى كلام العرب، وقد ورد فى التنزيل فى مواضع متعددة كما فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ﴾[3] وهذا على خلاف رأى الجاحظ الذى رأى أنه كان من الملائكة.

وقد أورد الجاحظ فى الفقرة السابقة له عبارات متناسقة يربط بينها سجع جميل منشؤه اتحاد نهايات الكلمات التى أحدثت موسيقى جميلة تستريح لها النفس وتهدأ كما فى قوله: «إبليسا، أنيسا» سين وإطلاق بعدها، والسين من حروف الصفير ذات الجرس الموسيقى العذب. ثم تأتى نغمة أخرى تحدث من نهايات الكلمات التالية: تشويها، تمويها. نغمة أخرى غير السابقة لليقظة والانتباه. وثالثة بين (وهَدَى ... وغوى).

---

(١) سورة الزخرف الآيات ٢٦، ٢٧.

(٢) سورة الواقعة الآيتان ٢٥، ٢٦.

(٣) سورة النساء الآية ٩٢.

كما أن الجاحظ اســتخدم للتأكيد المفعول المطلق في قوله (شوّه خلقه تشــويها) وقوله (ومــوّه على نبيه تمويها) لتأكيد التشــويه في الأولى والتمويه في الثانية.

الحسد فى الأرض

١ - حسد ولدى آدم

وإذا كان الحسد قد لوّث جو السماء على كل ما فيها من نقاء وطهر، فإنه من باب أولى لا بد وأن يكون في الأرض، وإن كان وجوده في الأرض قد ترتب على حدوثه في السماء؛ ذلك لأن الله -تعالى- جعل الجنة سكن آدم عليه السلام وزوجه حواء، ولكن إبليس لم ينس ما سبب له آدم من اللعنة والطرد من رحمة الرحمن عندما رفض أن يسجد له كما أمره ربه، وظل يحسده ويحقد عليه ويحاول غوايته؛ فلما أسكن الله آدم الجنة أطلق له حرية التمتع بكل ما فيها من نعيم عظيم، وخير عميم إلا شجرة واحدة أمرهم الله ألا يقربوها، أو أن يلتقطوا ثمارها ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٣٥) ﴾[1] لكن إبليس- لعنه الله- لما رأى هذه الحظوة لآدم، كبر عليه ذلك؛ فذهب إليهما بخبث: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ

---

(١) سورة البقرة الآية ٣٥.

﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٢٤﴾﴾[1].

ونزل آدم- عليه السلام- الأرض، وعاش فيها، وكانت الذرية منه، والحسد معهم عليها، وحدث ما حدث بين ابني آدم. ولقد حكى الجاحظ ذلك بقوله- ضمن سرده تاريخ الحسد- «وأما في الأرض فابنا آدم حيث قتل أحدهما أخاه فعصى ربه وأثكل أباه، وبالحسد طوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين»[2].

إن الجاحظ بهذا ليشير إلى ما كان من قابيل وهابيل على نحو ما حكى القرآن عنهما في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ

(١) سورة الأعراف الآيات من ٢٠- ٢٤.

(٢) رسالة الحاسد والمحسود. ضمن رسائل الجاحظ ٣/ ٦.

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[1].

روى السُدّى عن أبى مالك وأبى صالح، عن ابن عباس وعن مُرّة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة أن آدم كان يزوج ذكر كل بطن بأنثى الآخر، وأن هابيل أراد أن يتزوج بأخت قابيل، وكان أكبر من هابيل وأخت هابيل أحسن، فأراد قابيل أن يستأثر بها على أخيه، وأمره آدم أن يزوجه إياها فأبى، فأمرهما أن يقرِّبا قربانا وذهب آدم ليحج إلى مكة، واستحفظ السموات على بنيه فأبَيْن، والأرضين والجبال فأبيْن.... فلما ذهب قربا قربانهما فقرب هابيل جذعه[2] سمينة، وكان صاحب غنم، وقرب هابيل حزمة من ردىء زرعه فنزلت نار فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل، فغضب وقال: «لأقتلنك حتى لا تنكح أختى، فقال: إنما يتقبل الله من المتقين»[3].

فلما تقبل الله من هابيل قربانه ولم يتقبل من قابيل حسد الأخير الأول لسببين أحدهما: اختصاص هابيل بالفتاة الجميلة التى ولدت فى بطن قابيل مع رغبة قابيل الشديدة فى حيازته لتلك الفتاة.

ثانيهما: أن الله تقبل قربان هابيل بينما لم يتقبل قربان أخيه.

---

(١) سورة المائدة الآيات ٢٧- ٢٩.

(٢) الجذع من الضأن ما بلغ ثمانية أو تسعة. عن المعجم الوسيط.

(٣) قصص الأنبياء لابن كثير ص ٤٧. المكتبة التوفيقية، القاهرة

من أجل ذلك دب الحقد والحسد من الأخ على أخيه، وكان ذلك أول معصية على ظهر هذا الكوكب الأرضي. وملأ الحسد قلب الأخ على أخيه فأقدم على جريمة من أبشع الجرائم وهى القتل. يقول الجاحظ فى هذا الصدد: «لقد حَمله الحسد على غاية القسوة وبلغ به أقصى حدود العقوق، فأنساه من رَحِمِة جميع الحقوق، إذ ألقى الحجر عليه شادخا، وأصبح نادما صارخا»[1].

وتلك نهاية مأساوية لتلك القصة التى تحكى ما حدث لأول أخوين على ظهر هذا الكوكب، وكان الحسد هو الذى حرّك أحداثها ورسم نهايتها.

وأشخاص القصة اثنان فقط يمثلان نموذجين متباينين؛ فقابيل يمثل نموذج الشر والفساد الذى سيكون فى الأرض بعد ذلك إلى قيام الساعة، ومن ثم فإن قلبه كان تربة صالحة لاستشراء الحسد فيه، وبلغ هذا الحسد مبلغا كبيرا جعله يقدم على قتل أخيه».

وأما هابيل؛ فإنه يمثل نموذج الخير والصلاح والتقوى، فهو يقول لأخيه فيما حكى القرآن: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٨ ﴾[2].

---

(١) رسائل الجاحظ ٣/ ٦.

(٢) سورة المائدة الآية ٢٨.

فـكان خيراً من أخيه، ولذلك ورد فـي الخبر «إذا كانت الفتنة فكن كخير ابنى آدم»[1]

وهكذا رسـم الله-جلت قدرته- نموذجين للبشرية فى بداية حياتها على الأرض؛ نموذجاً للخير والسـلام والمحبـة والذى مثّله هابيل بما نـزع الله من قلبه الضغينة والحسـد. ونموذجاً للشـر والحروب والقتل والفتن يمثله قابيل بما كان في قلبه من غل وحسد وحقد، وذلك لحكمة عالية وقدرة عظيمة، وربما أراد الله- سـبحانه- أن يعرِّف الناس وإلى أن تقوم الساعة أن كل الشرور والآثام والخطايا العظام التى ترتكب فوق سطح هذا الكوكب الأرضى إنما هى بسبب الحسد.

(لقد حمله الحسـد على غاية القسـوة) تعبير يعبر به الجاحظ على الحالة التي وصل إليها الحاسد الحاقد؛ إذ جعله الحسد مؤهلا لارتكاب أفظـع الجرائم، (وبلغ به أقصى حدود العقـوق). حقا إنه عصيان لربه وعقوق، إذ لم يراقب الله ولم يمتثل أوامره، وعقوق وعصيان لوالده الذى أمرهمـا أن يقرب كل منهمـا قربانا، «وأيكما يُقبـل قربانه فهو أحق بالفضل»، فلم يمتثل قابيل لأمر الله ولا لأمر أبيه.

(فألقى عليه الحجر شـادخا) تنفيس عن بركان الحسد الذى كان يثور فـى قلب قابيل من أخيه، وهذه نهايتـه فى كل زمان ومكان، لقد نفذ فى

---

(١) تفسير القرطبى مجلد ٣/ ٢١٣.

أخيـه ما أملاه عليه غيظه وحقده وحسـده وغضبه، لا ما أملاه عليه دينه وضميره ونداء ربه ووصية والده؛ فهو أحمق لم يتريث ولم يفكر في عاقبة هـذا العمل بدليل قول الله تعـالى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ۝٣١﴾[1] يقـول الجاحظ (وأصبح عليه نادما صارخا) إنه تعذيب الضمير الذى يكون بعد اقتراف الذنوب والمعاصي، إنه نداء داخلي في أعماق الضمير جعله الله تعذيبا آخر أشـد لأولئك الذين يتبعون شهواتهم، ويرتكبون تلك الجرائم التي أملتهـا عليهم أحقادهم وحسـدهم، وهذا يذكرنا بخطبة الشـيطان الرجيم يوم القيامـة فيما حكاه القرآن الكريم عنه ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٢﴾»[2]. فبعد غواية الشـيطان للإنسان في الحياة الدنيا، وبعد كل ما يقترف بسببه من شرور وآثام، يأتي يوم القيامة متبرئا مما حدث متبرما منه فلعنة الله عليه إلى يوم الدين.

ولقد ساق الجاحظ هذا المعنى في عبارة جميلة متسقة وأتى فيها من البديع ما جعلها شـيّقة تسـتريح لها النفس لتتملى ما بها من معنى،

(١) سورة المائدة الآية ٣١.

(٢) سورة إبراهيم الآية ٢٢.

ففى قوله (لقد حمله الحسـد) يبين أن الحسـد دابة يركبها الحاسـد وتسـير به على هواها، وليس له سـلطان عليها. وفى قوله (على غاية القسـوة) ما يدل على أن الحسد لا يترك جانبا للخير فى نفس الإنسان وإنما يغلق كل مسالكه.

كما أن الألفاظ: القسـوة، العقوق شارخا، صارخا ألفاظ معبرة تماماً عن فكرة الجاحظ التى هو بصدد عرضها.

وجاء الجناس الناقص بين الحقوق والعقوق ليضفى على الكلام روعة وبهاء.

والسجع بين كلمتى (شادخا) و(صارخا) جاء ليحدث موسيقى عذبة ونغمةً متواترة تهدأ لها النفس.

٢ - حسد أخوة يوسف:

ويمضى الحسـد فى أحقاب الزمن، وهو لا يـترك فترة من الفترات أو مجتمعا من المجتمعـات إلا ويحط ترحاله وينفث سمومه طالما وجد تجمعـاً لذرية آدم؛ تلك الذرية التى بدأته منـذ أن فتح التاريخ جفنه علـى الأرض؛ فبعد أن عرض الجاحظ قضية ولدى آدم وقصتهما، عرض بعدها قضية أخرى للحسد، وقصة أخرى من قصصه؛ وهى أيضا حدثت بين أبناء نبى من أنبياء الله، وفيها تجسـيد للحسد وبيان سطوته أو إن شئت فقل على أصحابه، ولا فرق فى ذلك أن يكونوا من سلالة الأنبياء، أم من غيرهم من عامة الناس فهم على أية حال من ذرية أدم.

عرض الجاحظ قصة يوسف مع أخوته عرضاً بارعاً لا يتأتى لأديب مثله، فقد ذكر سببا للحسد من الأسباب الموجبة له، المحركة لدواعيه المهيجة لكوامن الغيظ والحقد في النفس، فبدأ هذا الفصل بقوله: (وكيف يصبر من استكن الحسد في قلبه على أمانيه). وكأنه يريد أن يقول إن من أسباب الحسد عدم تحقيق أماني الحاسد التي يراها عند المحسود. وفي قوله (استكن) ما يشير إلى أنه جعل الحسد نارا ذات جمر مؤجج مستكنة في نفس الحاسد، ثم يمضي الجاحظ فيقول: (ولقد كان أخوة يوسف حلماء، وأجلّة علماء، ولدهم الأنبياء، فلم يغفلوا عما قدح في قلوبهم من الحسد ليوسف، حتى أعطوا أباهم المواثيق المؤكدة، والعهود المقلدة، والإيمان المغلظة، أنهم له حافظون، وهو شقيقهم وبضعة منهم. فخالفوا العهود ووثبوا عليه بالظلم والقوة، وألقوه في غاية الجب، وجاءوا على قميصه بدم كذب؛ فبظلمهم يوسف ظلموا أباهم طمعا أن يخلوا لهم وجه أبيهم، وظنوا أن الأيام تسلية، وحبه لهم من بعد غمه يلهيه، فأسالوا عبرته، وأحرقوا قلبه)[1]. وهو في عرضه لهذه القضية إنما يستوحيها ويستوحي أحداثها من القرآن الكريم، فمرة يأتي بالمعنى مقتبسا من القرآن الكريم كما في قوله: «حتى أعطوا أباهم المواثيق المؤكدة والعهود المقلدة والإيمان المغلظة وذلك

---

(١) رسائل الجاحظ (رسالة الحاسد والمحسود) ٣/ ١٥.

إشـارة إلى قوله تعـالى: ﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾[1] فهم يؤكدون نصحهم له بعدة مؤكدات ؛أولها اسمية الجملة وثانيها إن وثالثها اللام.

ومـرة أخـرى يأتى الكلام على نمط ما سـاق القرآن فى هذا الشـأن ففـى قوله: أنهم له حافظون. يقتفى أثر قول الله– تعالى–: ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾[2] وقول الجاحظ: وألقوه فى غيابة الجب. يقتفى قول الله– تعالى– ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ ﴾[3] وجاء فى رسـالة الحاسـد والمحسـود: وجـاءوا على قميصه بدم كذب. نصاً من قول الله عز وجل: ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾[4] وإن كان الجاحظ لم يفصل بين كلامه وكلام الله فى هذا الصدد.

وقصة يوسـف مع إخوتـه؛ أن يعقوب كان له من البنين اثنا عشـر ولـدا ذكرا، وكان أشـرفهم وأجلّهم وأعظمهم يوسـف عليه السلام، بل ولم يكـن فيهم نبى غيره على أرجح الروايات؛ لِما رواه الإمام أحمد عن ابن عمر أن رسـول الله ﷺ قال: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن

(١) سورة يوسف الآية ١١.

(٢) سور ة الحجر الآية ٩.

(٣) سورة يوسف الآية ١٠.

(٤) سورة يوسف الآية ١٨.

يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم»[1]. وحدث أن رأى يوسف في نومه رؤيا كفلق الصبح؛ والرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة[2] وذلك في صغره؛ كأن أحد عشر كوكبا والشمس والقمر يسجدون له. فهاله ذلك: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤﴾[3].

استيقظ يوسف من نومه، وكعادة الصغار الذين يأنسون بآبائهم ويستريحون للحديث معهم ويقصّون لهم كل ما يرون ويسمعون، حكى يوسف الصغير لأبيه يعقوب ما حدث له من أمر الرؤيا، فهال الشيخ هذا الأمر العظيم، وعرف أن ابنه هذا سيكون له شأن كبير؛ فخاف عليه حسد الحاسدين وحقد الحاقدين؛ فأمره ألا يحكي ما حدث معه لأحد بعد ذلك وخاصة إخوته؛ لأن يعقوب عليه السلام عرف أن الكواكب الأحد عشر ما هي إلا إخوته، وأن الشمس أبوه والقمر أمه. ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥﴾[4] لقد خاف يعقوب على صغيره من الحسد، وما يمكن

---

(١) انفرد به البخاري فرواه عن عبد الله بن محمد وعبدة عن عبد الصمد بن عبد الوارث ٤/ ٢٢٤.

(٢) هذا الحديث أخرجه الترمزي في كتاب الرؤيا الصالحة باب ما جاء في تعبير الرؤيا ٤/ ٥٣٦.

(٣) سورة يوسف الآية ٤.

(٤) سورة يوسف الآية ٥.

أن يجره إلى ابنه الحليم من متاعب لا تطيب لها نفس يوسف، فضلا عما يلاقيه من ويلات من جراء ذلك الداء اللعين. وهذه إشارة واضحة إلى أن الإنسان لابد أن يكتم أسراره وألا يذيعها خوفا على نفسه من الحسد؛ وقد جاء في بعض الآثار استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان[1].

لقد رأى يعقوب علامات النجابة ودلائل النبوة والاصطفاء تلوح على وجه الصغير، فازداد له حبا حتى ظن بقية الإخوة أنه الأحب والأقرب إلى أبيهم هو وأخ لهم يقال له بنيامين، ومما زاد هذا الشعور من الإخوة ناحية أخويهم أن بنيامين شقيق يوسف حتى قالوا ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨﴾[2].

ومن هنا دبت الغيرة في نفوسهم، وتحركت دوافع الحسد والحقد، ورأوا أن يعملوا شيئا، خاصة وأنهم الأكثر عددا، والأكبر سنا من محسوديهم، فأخذوا يفكرون ويدبرون، وذهبت أفكارهم كل مذهب، فمنهم من رأى قتل يوسف ليستريحوا منه للأبد، وينفردوا بحب أبيهم. وآخرون يرون أن القتل جريمة بشعة وأنها أكثر مما يتمنون؛ إنهم لا يريدون إلا غياب يوسف عن أبيه وانفرادهم بعطفه، ولذا يرون

---

(١) حديث استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان «تكملته فإن كل ذي نعمة محسود» رواه ابن أبي الدنيا والطبراني من حديث معاذ. وانظر تخريج الحافظ العراقي لأحاديث الأحياء على هامشه ٣/ ٢٠٦.

(٢) سورة يوسف الآية ٨.

تغييبه عن أبيهم بأى صورة، وهذا ما يكون عليه الحاسـد فى كل مكان وزمان، فهو يريد ألا يرى محسـوده أمامه بأى شكل من الأشكال، لأن وجـوده يقض مضجعه ويحرمه النوم والراحة؛ حيرة وبؤس وشـقاء، وتنازع فى كوامن النفس البشـرية، وعدم استقرار لها، وكلها دواع فى نفس الحاسد الحاقد تمزق جسده، وتفتت أعضاءه جزاء وفاقا لما يرتكبه فى حق نفسـه ودينه. ويحكى القرآن هذا المشـهد بقوله: ﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠ ﴾[١].

لقد استقر رأى المجتمعين على الرأى القائل بإلقاء المحسود فى غيابة الجب، وهو رأى أكبرهم سنا على أرجح الروايات وهو (روبيل).

عند ذلك أخذوا يدبرون أمراً يسـتطيعون به انتزاع يوسـف من أبيه وانفرادهم به، فعرضوا على الشـيخ عرضاً طيبا رأوا أنه سـيوافق عليه لأن فيه مرحا وسـرورا ليوسـف المحبب إليه، فكلموه بلطف، وبلغة مَن يحرص على يوسـف فهو أخوهم ولابد أن يكونوا له عونا. ﴿ قَالُواْ

---

(١) سورة يوسف الآيات من ٧- ١٠.

يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ ﴾[1] لكـن الشـيخ– بما أوتى من فطانة الأنبياء وحصافة الشيوخ– لم يسترح لهذا العرض الذى عرضـوه، فما كان منـه إلا أن قـال: ﴿ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[2] لكنهم عادوا يطمئنونه مرة أخرى، ويثبتون له أنهم يستطيعون حماية أخيهم؛ فهـو أخوهم وبضعة منهم ومن ثم فإنهم قالوا فيما حكى القرآن عنهم: ﴿ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[3] عند ذلك سـلم لهم الشيخ وأخذوا أخاهم؛ وما إن غابوا عن عينى أبيهم حتى جعلوا يشـتمونه ويهينونه بالفعـال والمقال، ثم نفذوا فيه الحكم الـذى أصدروه عليه من قبل؛ وهو إلقـاؤه فى غيابة الجب أى فى قعره على راعونته[4] فأوحى الله إليه أنه لابد من فرج ومخرج من هذه الشدة التى أنت فيها، ولَتَكُوننَّ فيما بعد– فى موقف أنت فيه عزيز وهم دون ذلك فتخبرهم بفعلتهم هذه، وما ارتكبوه فى حقك وما أودى به حقدهم

---

(١) سورة يوسف الآيتان ١١، ١٢.

(٢) سورة يوسف الآية ١٣.

(٣) سورة يوسف الآية ١٤.

(٤) الراعونة/ الصخرة تكون فى وسـط البئر ليقـف عليها الماتح، وهو الذى ينزل ليملأ الدلاء.

وحسـدهم عليك ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[1] وهذه نهاية كل محسـود؛ العزة والغلبة على حاسـده مهمـا كانت صولته، ومهما كان حسده.

إن هـذه القصة هي الدرس العملي لكل حاسـد ولكل محسـود والقرآن الكريم مسـتودع القيم العظيمة، والدروس المفيـدة، والعبر والعظات. إن سـورة يوسـف هذه- والتي بدأت بدرس عظيم في بيان آيات القرآن إنما أنزله الله سـبحانه وتعالى باللغـة العربية الفصيحة هي لغة العرب حتى نتدبر ما فيه من موعظة بليغة ودروس مفيدة ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾[2] هـذه السـورة نفسها انتهت بقول الله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾[3].

---

(١) سورة يوسف الآية ١٥.

(٢) سورة يوسف الآيات من ١- ٤.

(٣) سورة يوسف الآية ١١١.

إذن فالقَصص القرآنى لِأخذ الدرس المفيد النافع وتطبيقه فى حياتنا العملية، وما أحوجنا- ونحن فى هذه الظروف العصيبة من تاريخ أمتنا ودينِنا- أن نطبق كل ما جاء به القرآن الكريم من قوانين وتشريعات إلهية وأخذ الدروس والعبر من القرآن.

ما أحوجنا أن نجعل القرآن دستوراً لنا نحتكم إليه كالسابقين الذين سادوا هذا الكوكب الأرضى باحتكامهم إلى كتاب ربهم حتى نكون جديرين بقول ربنا جل شأنه: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[1].

سورة يوسف إذن درس عملي ونموذج واضح للحاسد وما يحيك من مؤامرات، وما يرتكب من أعمال منافية للآداب العامة وقواعد الدين مع أنهم- وكما قال الجاحظ عن أبناء يعقوب- حلماء وأجِلَّة علماء. وهاتان صفتان جليلتان من المفروض أن ترفعا صاحبهما إلى القمم العالية من أخلاق البشر.

ليس الحلم والعلم فقط من صفات أبناء يعقوب كما ذكر الجاحظ، ولكنه قال عنهم أيضا: ولدهم الأنبياء. وتلك مكانة لا تتوفر لأحد

---

(١) سورة النور الآية ٥٥.

إلا بفضل الله؛ فقد تربَّوا في بيت النبوة، وما كان يعقوب نبيا وكفى ولكنه نبي ورسول قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ ﴾[1].

يعقوب إذن نبي ورسول، وجبريل ينزل إليه بين الحين والحين بأوامر السماء وهدايتها ومع ذلك فإن أولاده لم يسلموا من داء الحسد الذي كان منهم لأخيهم يوسف.

٣ - حسد اليهود لسيدنا محمد ﷺ:-

ويمضي الجاحظ في تاريخ الحسد فيعرض- بعد ما سبق ذكره- ما كان منه على عهد رسول الله ﷺ وهو حسد اليهود- عليهم اللعائن إلى يوم الدين- وحسد المنافقين له ﷺ. فأما حسد اليهود فقد ذكره الجاحظ بقوله: (وما أوتي المحسود من حاسده إلا من قبل فضل الله عنده ونعمه عليه قال الله عز وجل: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾[2][3].

---

(١) سورة النساء الآية ١٦٣.

(٢) سورة النساء الآية ٥٤.

(٣) رسائل الجاحظ ٣/ ٤.

والضمـــير فى (يحســدون) يعود إلى اليهـــود. وأما المقصـــود بقوله (الناس) فى الآية فهو محمد ﷺ، وقيل الرسول ومن معه من المؤمنين. وقد جاز أن يقع لفظ الجمع عليه وهو واحد لأنه اجتمع فيه من خصال الخـــير ﷺ ما لا يحصل إلا متفرقاً فى الجمع العظيم، ومن هذا يقال: فلان أمة وحــده؛ أى يقوم مقام أمة قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ ﴾[1][2].

وأما الفضل الذى تفضل الله به على نبيه- ﷺ- وحسده اليهود من أجله فهـــو النبوة، وما أعظمه من فضل؛ فالنبوة أعظم المناصب فى الدين، وكلما كانت فضيلة الإنسان أتمّ وأكمل، كان حسد الحاسدين عليه أعظم. ومنطلقا مـــن هذه النعمة العظيمة أن الله جعـــل نبيه فى مركز القوة والعزة والمنعة من أعدائه، ثم إن اليهود كانوا ينتظرون أن تكون هذه النبوة فيهم وكانوا يتباهون بذلك ويقولون للعرب: ســيكون فينا نبى آخر الزمان نُقَتِّلكم به قتل عاد وإِرَم، فلما نزل النبى من العرب اشــتد حقدهم وحنقهم وغيظهم على النبى خاصة، وعلى العرب عامة إلى وقتنا الحاضر وإلى آخر الزمان، وما يقوم به اليهود فى فلســطين من طمسٍ للمعالم العربية والإســلامية، ومن ارتكاب أبشــع الجرائم والانتهاكات من تخريب فى الأماكن المقدسة مثـــل افتتاحهم النفق أســفل بيت المقــدس وغيره وما يرتكبــون من قتل

---

(١) سورة النحل الآية ١٢٠.

(٢) انظر مفاتيح الغيب للفخر الرازى ٥/ ٢٥٢.

وطرد وتشـريد وحصار، تباركه قوى البغى والعدوان كأمريكا وغيرها من عصابات الشـر فى العالم ، ما هو إلا جـزء من مخططهم فى طمس المعالم الإسـلامية والهوية العربية، وما أملى عليهم ذلـك إلا حقدهم وحنقهم وحسدهم للإسلام والعرب وكراهيتهم الشديدة لهم.

ورأى آخـر فى سـبب حسـد اليهود للنبـى ﷺ هو كثرة نسـائه وقد اجتمع للرسـول فى ذلك الوقت منهن تسـع، واليهود يعلمون أن الله أحل لداوود منهن تسـعا وتسعين، واجتمع لسليمان ألف امرأة ثلاثمائة مهرية وسبعمائة سرية[1]. ولا يمكن أن يكون هذا الفضل سابقا أو مقدما على فضل النبـوة، وعلى هـذا فإن الرأى الأرجح فى نوع الفضـل هو الأول، أو يكون الثانـى مجتمعاً مع الأول من فضل الله علـى نبيه محمد ﷺ ولذلك فإن الله تعالى يقول- بعد ذلك ﴿ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾[2] أى إن الله تعـالى أعطـى الكثـير من أبنـاء إبراهيم الفضل العظيم الذى جمعوا به بين النبوة والملك فلا داعى للحسد والحقد.

٤ - حسد المنافقـين:-

وأمـا حسـد المنافقين لرسـول الله ﷺ فقد ذكـره الجاحظ ممثلا فى شـخص زعيمهم وكبيرهم عبـد الله بن أُبىّ بن سـلول إذ يقول: «وكان

(١) انظر تفسير القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) مجلد ٣/ ١٨٢.

(٢) سورة النساء الآية ٥٤.

عبد الله بن أُبيّ قبل نفاقه نسيج وحده لجودة رأيه، وبُعد همَّته، ونُبْل شيمته، وانقياد العشيرة له بالرياسة. وما استوجب ذلك إلا بعد ما استجمع له لبُّه وتبين له عقله، وافتقدوا منه جهله، ورأوه لذلك أهلا لِما أطاق له حملا ....» وهو عبد الله بن أُبيّ بن سلول رأس المنافقين في أول الإسلام؛ وسلول جدته، نُسب إليه؛ وجده مالك بن الحارث بن عبيد بن مالك بن سالم الحبلى بن غنم بن عوف بن الخزرج، وابنه عبد الله بن عبد الله كان من فضلاء الصحابة؛ بدريا قُتل يوم اليمامة[1].

هو إذن رجل من أسرة عريقة، وقد وصفه الجاحظ قبل إصابته بداء الحسد بصفات إذا اجتمعت في شخص تستحوذ له الفضل والهيبة؛ فقال عنه: «نسيج وحده». أى لا نظير له؛ كالثوب الكريم الذى لم ينسج على منواله غيره لدقته، كما أنه يتصف بجودة الرأى وهو ذو همة عالية. وأخلاقه نبيلة فاضلة. فاستحق بهذه الصفات وغيرها أن يكون مؤهلا للرياسة والسيادة في قومه، وما كانت له هذه السيادة والرياسة إلا لعلمه وعدم جهله.

هذه هى صفات الرجل قبل المرض الخطير الذى أصيب به وهو الحسد، والذى تمكن فى قلبه واستقر فى جوفه، لِما رأى عليه النبى من مكانة عالية، وحب الناس له، وإكرامه بالنبوة والحكمة والدرجة العالية الرفيعة من ربه عز وجل.

---

(١) جمهرة أنساب العرب ٣٥٤- ٣٥٥.

ثم إن هذا المرض تسبب له في مرض أشد فتكا وأخطر أثرا، أودى به إلى النفاق وقد وصف الجاحظ ذلك بقوله: فلما بعث الله نبيه ﷺ وقَدِمَ المدينة، ورأى هو عز رسول الله ﷺ، شَمُخ بأنفه، فهدم إسلامه لحسده وأظهر نفاقه. وما صار منافقاً حتى كان حسودا، ولا صار حسودا حتى صار حقودا. فحمُق بعد اللب، وجهل بعد العقل، وتبوأ النار بعد الجنة(1). وهكذا أودى به حسده إلى العاقبة السيئة التي ذكرها الجاحظ بعد ما كان عليه من الصفات الطيبة.

لقد عرض الجاحظ صفات ابن سلول عرضا يليق به قبل حسده، ويتناسب مع مقامه حينئذٍ؛ فقوله: (نسيج وحده) كناية عن انفراده بالصفات الحسنة. ثم إنه شبهه بالقائد المظفر، وعشيرته جنود منقادون له. وقوله: (وإذعانهم) كناية عن كفاءته وقدرته وهيبته للناس. وقوله: (استجمع له لبه) كناية عن دقة تفكيره وكياسته وعدم إصداره الأحكام إلا بعد دراستها دراسة وافية. وقوله: (لِما أطاق له حملا) جعل هذه الأخلاق والصفات التي اتصف بها كأنها حمل ثقيل وأنه أهل لحمل هذه الأمور التي لا يقوى على حملها المهازيل من الناس.

كما أن هناك موسيقى عذبة جميلة في السجع الذي نشأ نتيجة اتحاد نهايات الكلمات: نفاقه.. حسده.. رأيه.. همته.. شيمته. وكذلك بين

---

(1) المصدر السابق.

كلمات: السيادة.. الرياسة. ثم يعود مرة أخرى إلى النغمة الأولى التى يحدثها حرف الهاء فى: لبه.. عقله.. جهله. ثم: أهلا.. حملا.

كما أنه استخدم للصفات الحسنة ألفاظا تناسبها مثل: لب..عقل.. أهل. وجاء التضاد بين لفظي: تبين، افتقدوا. وكذلك بين: عقل، جهل. لإظهار المعنى وتوضيحه.

وأما المترادفات فقد أتى بهما الجاحظ في هذه العبارة بين انقياد وإذعان وكذلك بين لب وعقل للتوكيد والبيان.

وعندما تحدث عنه بعد نفاقه فإنه أتى بألفاظ تناسب ما أصبح عليه وبما يظهر مكنونة مثل: شَمَخ... هَدَم... حَسَد... نِفَاق... حسود... حَقود... حَمق... جهل... النار. كما أن قوله: شمخ بأنفه كناية عن كبريائه وغروره. وقوله (هدم إسلامه) استعارة جميلة تبين أن الإسلام بناء عظيم ضخم جعله الحسد يأخذ في هدمه. وقوله: وأظهر نفاقه كناية على أن النفاق مرض مخفى مستور.

والجاحظ رتب أمراضا خطيرة مترتبة على الحسد ترتيبا طبيعيا منطقيا؛ وذلك في قوله: وما صار منافقا حتى كان حسودا، ولا صار حسودا حتى صار حقودا. وبذلك يبين الجاحظ أن الحسد هو أساس كل الشرور والآثام والموبقات.

وأما النفاق فإنه مرض خطير، وداء عضال مترتب على الحسد، وتدرج طبيعى له. ولم يظهر هذا المرض فى المجتمع الإسلامى الأول

إلا فى المدينة وذلك بعد أن عزَّ الإسلام، وقوى المسلمون وأصبحوا فى مكانة مرموقة من القوة والعزة حتى هابهم عدوهم وأصبح يُعمل لهم ألف حساب.

علاج الحسد

أثبتنا آنفاً- أن الحسد داء عضال، ومرض خطير من الأمراض الاجتماعية المستعصية. وإذا كنا نقر أنه داء فلابد له من دواء، وإذا كان هذا المرض له طرفان؛ الحاسد والمحسود، فإن علاجه ينقسم قسمين بحسب طرفي المرض، قسم يخص الحاسد، وقسم يخص المحسود.

فأما ما يخص المحسود، فإن الجاحظ قد رسم له خطوات العلاج، في مثل قوله: «فإذا أحسست- رحمك الله- من صديقك بالحسد، فأقلِلْ ما استطعت من مخالطته، فإنه أعون الأشياء على مسالمته، وحصِّن سرَّك منه تسلم من شره وعوائق ضره، وإياك والرغبة في مشاورته، ولا يغرنك خدع مَلَقِه، وبيان ذَلَقِه، فإن ذلك من حبائل نفاقه»[1].

والجاحظ - بهذا القول- يفترض صدور الحسد من الصديق، وهذا أمر طبيعي، إذ الحسد يمكن أن يأتي من الصديق والقريب والنسيب وكل الملتصقين بالشخص والمتصلين به اتصالاً وثيقاً، وإنما خُصّ الصديق في هذه العبارة لالتصاقه الشديد بصاحبه ومن ثم فإن الجاحظ - بعد ذلك- يقول: «فأقلل ما استطعت من مخالطته. فإن المخالطة الكثيرة

(١) رسائل الجاحظ (مصدر سابق) ٣/ ١٦.

لا تكـون إلا مع الصديـق، ويبين الجاحظ أن عـدم المخالطة علاج نافع لوجود المسـالمة بينه وبين صديقه، وكأن الحاسـد سيشـعل- بحسده- حرباً شديدة على محسوده».

وأما الخطوة الثانية؛ فتتمثل في قول الجاحظ: (وحصِّن سـرك منه تسلم من شـره وعوائق ضره). وقوله (حصن) بمعنى شَيِّد حصناً منيعاً يمنع تسـرب أسـرارك إلى عدوك الحاسد. وهي اسـتعارة جميلة تفيد شـدة إحكام ومنع تسرب أي سرّ مهما كان بسـيطاً إلى الحاسد، فإنه- على حالته- سيستغل ذلك لهدم محسوده والقضاء عليه، وكأن الأسرار جنود للإنسـان يحمونه من هجوم أعدائه، وكأن مسـتودع الأسرار في الإنسان حصناً منيعاً.

والخطـوة الثالثة في هـذه المرحلة من مراحل العـلاج هي التحذير الشـديد من الجاحظ للمحسود؛ ألا يشاور حاسده في أي أمر من الأمور (وإياك والرغبة في مشاورته) كأنه لا يحذر من المشورة لكنه يحذر من مجرد الرغبة بمعنى أن تُحدِّث المحسود نفسُه أن يشاور حاسده.

ثم يبين الجاحظ ألاعيب الحاسد لمحسوده فيقول: (ولا يغرنك خُدَع مَلَقـه) والخُدَع- بضم الخاء وفتح الدال- جمع؛ مفرده خدعه (بالضم). يقـال: خدع خدعـاً: تغير من حال إلى حال، وخـدع فلان تخلّق بغير خلقه، وهو خادع الرأي: متلون لا يثبت على رأي[1].

---

(١) راجع الوسيط: مادة (خ د ع).

وأما الملق فإنه اللين من الكلام. فالجاحظ يحذر المحسود من كلام حاسده الحلو، وأحاديثه العذبة الجميلة -في الظاهر- بينما هو يخفي غيرها.

(وبيان ذلقه) والبيان: بمعنى الإيضاح، والذلق، بمعنى الفصاحة، وأيضا فإن الجاحظ يحذر من أسلوبه العذب وقدرته على البيان والإقناع. فكل هذه الأمور يجب أن يتنبه إليها المحسود من حاسده جيداً. فإن ذلك كله مصائد شيطانية كما يقول عنها أبو عثمان في نهاية الفقرة (فإن ذلك من حبائل نفاقه). ومعنى ذلك أنه جعل الحاسد شيطانا رجيماً، وأن هذه الأساليب التي يسلكها مع محسوده كلها ما هي إلا مصائد الشيطان الرجيم.

والجاحظ في العبارة السابقة يتجه إلى البديع ليجذب القارئ إلى أسلوبه، ويجعله سهلاً ليّنا، بما أضفى عليه من الجمال بالموسيقى العذبة التي نشأت من السجع والجناس في العبارة؛ فالسجع في اتحاد فواصل الكلمات: مخالطته... مسالمته، وبين: شره... ضره... مشاورته... ملقه... ذلقه. والجناس الناقص بين: سر، شر. وبين: ملق، ذلق.

ولكي يضمن الجاحظ بُعد المحسود عن حاسده، فإنه يُنَفِّر من الحاسد تنفيراً تتقزز له نفس المحسود فلا يتصل بالحاسد أبداً وذلك بقوله: «فإذا كان الأمر على هذا فمجاورة الموتى، ومخالطة الزمنى،

والاجتنان بالجدران، ومصر المصران، وأكل القِردان، أهون من معاشرته والاتصال بحبله»[1].

وأبو عثمان يقصد بمجاورة الموتى- كما جاء في مُسْتَهلّ العبارة- هو الموت معهم والغياب عن وجه الحاسد. أو ربما يقصد السكن بعيداً عن الناس جميعاً بجوار القبور، لأن القبور تكون غالباً بظاهر البلاد. وهذا أقرب إلى مقصد أبيعثمان في العبارة لأنه أضاف مجاورة الموتى إلى مخالطة الزمنى بالواو وليس بـ (أو).

والزمنى؛ هم أصحاب الأمراض المزمنة على ما يكون من مخالطتهم من غم ونكد، وذلك لأنهم لا يُحسدون لابتلاء الله لهم بالأمراض المستعصية، فهم مشغولون بأنفسهم وبمرضهم. وأما الاجتنان بالجدران فهو الاحتماء بها والجلوس تحتها بعيداً عن الحاسدين. (ومصر المصران) وفي رواية أخرى (ومصّ المصران)[2] وهي الأمعاء أو الحوايا كما عبر عنها القرآن الكريم ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾[3]. وما بها من فضلات الطعام وروث الإنسان أو الحيوان.

---

(١) الرسائل ٣/ ٢٠- ٢١.

(٢) وانظر هامش الرسائل ٣/ ٢١.

(٣) سورة الأنعام الآية ١٤٦.

(وأكل القِـردان) بكسـر القاف، جمع قَراد (بالضم) وهى الحشـرة الضـارة المعروفة، كل هذه الأمور سـالفة الذكر جعلها أبو عثمان أهون من الاتصال بالحاسـد ومعاشرته ومصادقته لأنه شخص لا يأتى منه إلا كل شر ونكد.

وقد جاءت العبارة على ثلاثة ألوان من الإيقاع المختلف، وهذا- كما سبق قوله- فى نظرى للانتباه واليقظة.

فأما الإيقاع الأول فيتمثل فى قوله: الموتى... الزمنى بالألف المقصورة فى نهاية كل منها.

والإيقاع الثانى متمثل بين الكلمات: الجدران... المصران... القردان، باشتراك الألف والنون بينها، وهو الترصيع.

وأما الإيقاع الثالث والأخير فيتمثل فى نهاية الكلمتين: معاشرته، بحبلـه، وكانـت نهاية الجملـة لهما، وهـى نهايـة طبيعية معنى وبديعاً.

وعرض الجاحظ- فى نهاية رسـالة الحاسد والمحسود- عرضاً آخر وعلاجاً مكرراً فى قوله: «وما أرى السـلامة إلا فى قطع الحاسـد، ولا السـرور إلا فى افتقـاد وجهه، ولا الراحة إلا فى صـرم مداراته، ولا الربح إلا فى ترك مصافاته»[1].

---

(١) الرسائل ٣/ ٢٢- ٢٣.

ويذكرني الجاحظ بالطبيب الحاذق، والنقريس الماهر الذى لا يكتفي من الأدوية بجرعة واحدة؛ لكنه يكرر له الدواء مرتين أو ثلاثاً حتى يضمن اقتلاع المرض من جذوره. وإذا كان هذا الكلام يصدق على الأمراض العضوية التي تكتشفها المعامل والمختبرات والتحاليل والأشعة على اختلاف أنواعها في العصر الحديث، فإن مرض النفس البشرية كالحسد لأشد حاجة وأكثر إلحاحاً إلى تكرار الجرعات الدوائية حتى يقتلع من النفس البشرية، أو حتى نضمن البعد عن ذلك الشر المستطير وهو الحاسد. وهذا ما فعله أبو عثمان، وكأن هذه الفقرة هي جرعة أخرى من العلاج، وإن كانت تحمل معاني الجرعات السابقة وهذه ميزة -في نظري- من مميزات التكرار في أسلوب الجاحظ الذى يتسم به أسلوبه؛ فهو في العبارة يدعو إلى قطع الحاسد، وافتقاد وجهه، وهما بمعنى واحد ولكنه تكرار للمعاني، (ولا الراحة إلا في صرم مداراته) والصرم بمعنى القطع، وهو تكرار آخر وترادف بين الكلمات؛ لتأكيد المعنى وتثبيت العلاج، «ولا الربح إلا في ترك مصافاته».

وعلى طريقة الأطباء الذين يُطَمْئِنون مرضاهم بتمام الشفاء والسلامة من الداء الذى يعانون منه إذا ساروا حسب التعليمات، وأخذوا الدواء بانتظام فيقول: «فإذا فعلت ذلك فكل هنيا مريا، ونم رضيا، وعش في السرور مليا»[1].

---

(١) المصدر السابق ٣- ٢٣.

فها هو ذا يبدأ العبارة بقوله: (فإذا فعلت ذلك) أى إذا سرت حسب التعليمات، واتبعت الإرشادات التى أرشدناك إليها. (فكل هنيا مريا) والطعام الهنى: هو الطعام السائغ فى أكله، أى الذى يأكله آكلُه بشهية ورغبة. وأما المَرِىَ من الطعام؛ فإنه النافع الذى ينتفع الجسم بمكوناته، ولا يتسبب عنه أو منه أذى للإنسان، ويمكن أن يكون الطعام هنيّا وليس مريّا؛ أى إنه شهى فى أكله لكنه يجلب التعب والمرض للإنسان، ويمكن أن يكون الطعام مريا وليس هنيا، أى إن الإنسان يأكله بغير شهية، أو رغبة لكنه يفيد الجسم، كما يُجبر المرضى على أكل مارقَ من الطعام ليقوِّم به أوَدَه.

لكن الجاحظ يَعِد المحسودين بأن طعامهم سوف يكون هنياً ومرياً؛ إذا هم ساروا على العلاج الصحيح كما رسمه، ثم هو يَعِدُهم- أيضاً- بالنومَ الهادئ الراضى الخالى من الهموم والمتاعب، وحتى إذا استيقظ فإنه بعيش يومه فى سعادة وراحة بال.

ثم إن الجاحظ كان له رأيان فى موقف المحسود من حاسده، وكلاهما نقله عن العلماء وأصحاب الرأى فى هذا الشأن.

فمنهم من يرى إعانة الدهر على الحاسد، إذ إن الحاسد لم يُجْبَر على موقفه هذا، وبالتالى فإنه لا يستحق الرحمة والعطف والمساعدة، وما يلاقيه هو جزاء الله العادل له؛ وفى هذا الصدد يعقد الجاحظ مقارنة بين الحاسد والعدو، ويبين أن الأخير أخف حدة، وأقل غيظا وحنقا

من الأول، لأنه إذا كانت عداوته بسبب نعمة فإنه يرضى وتزول تلك العداوة إذا أعطى منها، بخلاف الحاسد، فيقول: «وأعداء النعمة إذا شوركوا فيها ونالوا، تزحزحوا عن عداوتها، وكانوا من أهلها المحامين عنها والدافعين عن حماها»[1].

وأما الحاسد فإنه غير ذلك؛ إذ أخبر عنه الجاحظ بقوله: «وحساد النعمة إن أُعطوا منها وتبحبحوا فيها، ازدادوا عليها غيظاً وبها إغراء»[2].

لكن الجاحظ نقل قولاً للمغيرة بن شعبة- بعد النص الذى أوردناه له يقول فيه: ومن هذا قال المغيرة بن شعبة: (النعمة التى يعاش فيها نعمة محروسة ليس عليها ثائر يغتالها، ولا ذو حسد يحتال فى غِيَرِها.) فهو هنا يذكر ذا الحسد، ويدعو إلى مشاركته فى النعمة بينما يذكر بعد ذلك أن الحاسد يزداد غيظا على نعمة يشترك فيها بالعطاء من صاحبها. ثم هو يذكر بعد ذلك أن الحسد باق لا يزول مهما أعطى صاحبه، ومهما بذل له المحسود من عطاء. يقول: (والعداوة تَخْلَق وتُمَل، والحسد غضّ جديد، حرم أو أعطى لا يبيد)، ثم يستخدم نظريات المنطق فى هذا الصدد فيقول: (فكل حاسد عدو، وليس كل عدو حاسد)، وهو- بهذا- يجعل العداوة التى سببها الحسد عداوة ضارية

(١) نفس المصدر ١/ ٣٤٥.

(٢) نفسه ١- ٣٤٦.

عاتية باقية، لا تزول لأى سبب من الأسباب، بخلاف العداوة الأخرى فإنها تزول بزوال سببها. وضرب على ذلك مثلا بعداوة اليهود لرسول الله- ﷺ- بقوله: (وإنما حمل اليهود على الكفر بمحمد- ﷺ- وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم أنه نبى صادق.... الحسدُ....)[1].

وكأن الجاحظ - فيما سبق- يرى ألا تأخذ الإنسان رأفة بحاسد، وألا يُعطي المحسود من ماله شيئاً لحاسده، بل وربما يمكن أن يعطى المحسود عدوه ليزيل عداوته ولا حاسده. وهو- بهذا- يدعو إلى أن نقف من الحاسد موقف العداء دائماً، وأن نساعد الدهر على صفعه، وقد نقل عن مصعب بن الزبير أنه قال: (إذا رأيت يد الدهر قد لَطَمَتْ عدوك فبادر برجلك فإن سلم من الدهر لم يسلم منك)[2].

أما الرأى الآخر من الآراء التى قيلت فى علاج الحاسد، فهو الرفق به والحلم، والأخذ بيده وإرضائه، ومقابلة إساءته بالإحسان والعفو. وفى هذا الصدد نقل الجاحظ موقفاً كريماً من مواقف الحلم التى أثنى عليها رسول الله- ﷺ-، وهو حلم مع الجميع لا يقتصر على عدو أو حاسد أو غير ذلك. قال الجاحظ: «حدثنى نوح بن أحمد عن أبيه عن ابن عباس قال: جاء النابغة الجعدى إلى رسول الله- ﷺ-، فقال هل معك من الشعر ما عفا الله عنه؟ قال: نعم. قال أنشدنى منه. فأنشده:

---

(١) الرسائل. مصدر سابق.

(٢) نفس المصدر السابق ١/ ٣٥٩.

وإنا لقــوم مـــا نعــوِّد خيلنـــــا
إذا ما التقينا أن تحيــــد وتنفـــرا
وننكر يوم الروع ألــــوان خيلنــــا
من الطعن حتى تحسبَ الجون أشقرا
وليس بمعروف لنــــا أن نردهــــا
صحاحاً ولا مستنكـــراً أن تُعقَّـــرا
بلغنا السماء مجدُنــــا وسناؤنــــا
وإنا لنبغي فوق ذلــــك مظهـــــرا

فقال رســول الله- ﷺ-: إلى أين يا أبا ليلى؟ فقال: إلى الجنة. فقال رسول الله- ﷺ-: «إلى الجنة إن شاء الله».

ثم رجع في قصيدته فقال:

ولاخير في جهلٍ إذا لم يكن له   حليم إذا ما أورد الأمر أصــدرا
ولا خير في حلم إذا لم تكن لـه   بوادر تحمي صفوه أن يكـــدرا

فقال رســول الله- ﷺ-: «لا فض الله فاك». قال فأتت عليه عشرون ومائة سنة، كلما سقطت له سِنٌّ اثَّغرت أخرى مكانها؛ لدعوة رسول الله- ﷺ-[1].

معنى هذا أن الرسـول- ﷺ- أعجب بكلام النابغة الجعدي لما فيه من دعــوة إلى حلم يصد غوائل الجهل، ويحمــي صاحبه من الوقوع في مخاطره. وهي دعوة عامة إلى الحلم مع الحاسد وغيره.

---

(١) المصدر نفسه ١- ٣٦٤.

ومن يَرْون كسر جبر العدو، وإقالة عثرته، ونصرته عند وثوب الدهر عليه، هم الذين يتخلقون بالأخلاق الفاضلة، ويقابلون السيئة من الحاسد العدو بالحسنة من المحسود فيكون ذلك دليلاً على عُلُوّ منزلتهم وسموّ خلقهم وقوة عقيدتهم، وهم ينتظرون من الله الثواب، واضعين نصب أعينهم قول ربهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾[١] فهذا هو الخير العظيم والنفع العميم لهم ولمن صلح من أهليهم وذويهم، وأصولهم وفروعهم؛ عاقبة حسنة طيبة، وجنات النعيم ينعمون بها، والملائكة يحوطونهم من كل مكان ويغمرونهم بالسلام والاحترام.

ولقد استشهد الجاحظ، بعدة مواقف كريمة لتأييد رأى من يرى كسر جبر الحاسد، وعدم إعانة الدهر عليه؛ منها ما رواه هو عن ابن عبدالحميد قال: قال شبرمة[٢]: كانت الحرب يوم صفين بين العرب

---

(١) سورة الرعد الآيات ٢٢- ٢٤.

(٢) هو عبد الله بن شبرمة بن حسان بن المنذر بن ضرار بن عمرو الضبى أبو شبرمة الكوفى روى عن أنس وأبى الطفيل وعبد الله بن شداد بن الهاد وإبراهيم النخعى وغيرهم. ولد سنة ٧٢هـ ومات سنة ١٤٤هـ كان شاعرا وفقيها قليل الحديث، وذكره=

محضةً لا شــوب فيها، فكانت محاربتهم كداماً واعتناقاً، وكانوا إذا مــروا برجل جريح كانوا يقولون: خذله قومــه فانصروه، وألقاه دهره بمضيعةٍ فردُّوه إلى أهله[1].

ومما يلحظ فى الأمثلة التى أوردها الجاحظ عن العفو عن الحاسد أنها كلها لم يكن فيها حاسد، وإنما مفتخر بنفسه، أو عدو لغيره، وقد عرفنا أن العداوة أخف وطأة من الحسد؛ فما أورده مما كان بين النابغة الجعدى ورسول الله- ﷺ- ودعوة النابغة إلى الحلم ورضا رسول الله بذلك ودعائه له، لم يكن فيه موقف حسد، وإنما هو فخر من النابغة بنفسه وقومه.

وما أورده عن العفو والصفح يوم صفين لم يكن عن حســد، وإنما كان عــن عداوة بين فريق وآخر، التقيا فــى ميدان القتال. وإنّ جُلّ ما أورده الجاحظ عن العفو والحلم كان فى مواقف لم يكن فيها حســد كما ذكرت إلا ما أورده من بيتى شعر كان الزبير كثيراً ما يتمثل بهما:[2]

وإنى لأعدائى على المقت والقلــى   بنى العم منهم كاشح وحســود

=ابن حبان فى الثقات، وقال عنه العجلى كان قاضيا على الســواد لأبى جعفر. وكان عفيفــا حازما عاقلا. تهذيب التهذيب لابن حجــر جـ٥/ ٢٢٠- ٢٢١. دار الفكر. ط. أولى سنة ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.

(١) رسائل الجاحظ ١/ ٣٦٠- ٣٦١.

(٢) تاريخ الإســلام. شمس الدين الذهبى ١/ ٣٧٧ دار الغد العربى. والحديث فى صحيح البخارى ٥/ ١٤٣ دار الشعب.

أَذُبُّ وأرمى بالحصى من ورائهم   وأبدأ بالحسنى لهم وأعود

والكاشح هو العدو المبغض، والحسود معروف.

ويلحظ على هذه الأمثلة والاستشهادات التى ذكرها الجاحظ؛ سواء على إعانة الدهر على الحاسد، أم على مواساته وكسر جبره، أنه لم يعلق عليها ولم يذكر رأيه ولا أى الرأيين يوافق، ولكنه اكتفى بسرد تلك الآراء والأمثلة فقط.

وفى تصورى أن الدعوة إلى التسامح والحلم إنما هى دعوة عامة لكل الناس، وهى من أخلاق القرآن الكريم والدين، ومن أخلاق رسول الله- ﷺ، أما الحاسد فإنه لا يصلح معه معروف، وسيتمادى فى حسده كلما قدمت له يد العون والإحسان، و دليلى على ذلك موقف الرسول الكريم من يهود المدينة الذين ناصبوه العداء حسداً وحقداً، فلما أمكنه الله منهم طلب أن يختاروا حكما محايداً يصدر حكما عليهم بما نقضوا العهود والمواثيق، وبما كادوا لرسول الله- ﷺ- فاختاروا سعد بن معاذ. «فأرسل إليه رسول الله- ﷺ- فأتاه على حمار. فلما دنا قريباً من المسجد قال رسول الله- ﷺ- قوموا إلى سيدكم، أو إلى خيركم فقال: إن هؤلاء قد نزلوا على حكمك، فقال: نقتل مقاتليهم، ونسبى ذراريهم. فقال رسول الله- ﷺ-: لقد حكمت عليهم بحكم الله. وربما قال: بحكم الملك».متفق عليه[1].

---

(١) تاريخ الإسلام. شمس الدين الذهبى ١/ ٣٧٧ دار الغد العربى والحديث فى صحيح البخارى ٥/ ١٤٣.

فلو كان العفو وارداً مع الحاسـد لعفا الرسول الكريم عن اليهود وهو أهل العفو والتسامح.

وأمـا موقفه مع أعدائه مـن قريش الذين أخرجوه مـن مكة وعادوه وقاطعـوه، فإنه يختلف عن ذلك تماماً؛ إذ إنه لما عاد الرسـول الكريم إلى مكـة فاتحا في العام الثامن الهجرى، وأمكنه الله من قريش أعدائه خطب فيهم قائلاً: ما تظنون أنى فاعل بكم؟ قالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريـم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء[1]. وبذلك عفا عنهم، لأنهم أعداؤه وليسوا حساداً له.

لا هوادة- إذن- مع الحاسـد، ولا رفق به لأنه لا يُصلحه الرفق ولا العفو، ولا يثنيه ذلك عن حسده وكيده ومكره.

ومن علاج الحسد كتمان النعمة التى أنعم الله بها على الإنسان، وعدم إظهارهـا إذا كان ذلك ممكناً، لأن فى إظهارهـا ما يعرض هذه النعمة للحسّـاد، وقد قال رسول الله- ﷺ-: «اسـتعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان فإن كل ذى نعمة محسود».

وفى أدب الجاحظ ما يشـير إلى ذلك؛ فقد سـلك مع حساده إزاء ما أنعم الله عليـه بنعمة التأليف والبيان فيقـول: (ولربما خرج الكتاب من تحت يدى محصفاً كأنـه متن حجر أملس، بمعان لطيفة محكمة،

---

(١) انظـر: البدايـة والنهاية لابن كثـير ٢/ ٧٥٦ دار الغد العربى ط. أولى سـنة ١٤١١هـ، ١٩٩١م.

وألفاظ شـريفة فصيحة، فأخاف عليه طعن الحاسـدين إن أنا نسـبته لنفسـي، وأحسـد عليه من أَهُمُّ بنسـبته إليه لجودة نظامه، وحسـن كلامـه، فأظهره مبهما غُفْلاً في أعراض أصـول الكتب التي لا يُعرف وضّاعها، فينهالون عليه انهيال الرمل، ويسـتبقون إلى قراءته سـباق الخيل إلى غايتها)[1].

فهـو لا يضع اسمه علـى المؤلف الـذي يؤلفه ويخاف عليه حسـد الحسـاد، وهذا لون مـن ألوان الكتمان للنعمة التـي أنعم الله بها عليه (فأظهره مبهما غفلاً في أعراض أصول الكتب التي لا يعرف وضاعها). وقد شبه انهيال الناس على قراءة الكتاب. كانهيال الرمل من أعلى إلى أسفل، كما شبه استباقهم إلى مؤلفه كسباق الخيل يوم الحلبة إلى غايتها وهي صورة وضحت مدى اهتمام الناس بكتابه المتقن المُحصف.

ويدخل في كتمان النعمة- أيضاً- الاحتراز من الحاسد بستر محاسن من يخاف عليـه العين؛ فقد نقل ابن القيم ما ذكـره البغوي في كتاب شـرح السنة أن عثمان ﷺ رأى صبيا مليحاً، فقال: «دسموا نونته لئلا تصيبـه العين، ثم قال في تفسـيره، ومعنى دسموا نونته أي سـودوا نونته، والنونة؛ النقرة التي تكون في ذقن الصبي الصغير»[2].

---

(١) رسائل الجاحظ: ١/ ٣٥١.

(٢) زاد المعاد لابن القيم ٣/ ١٢٠.

وربما كانت وصية الرسول الكريم بالإحسان إلى الجار، وإهدائه من كل ما يُدخله الإنسان على أهله أو إخفاء ذلك عنه وعن عياله، ربما كان ذلك لنفس السبب.

وأخيراً فإن العلاج الكافى الشافى من الحسد يكمن فيما أوصى به الإسلام، وحث عليه وأمرنا أن نتعالج به إذا كان الحسد قد فرض سطوته، أو نتحصن به لئلا يقترب منا، وهو علاج نستقيه من مصدرى الشرع الشريف؛ القرآن الكريم، وسنة رسول الله ﷺ.

وقد أشار الجاحظ إلى هذا العلاج بقوله: (.... فما هذا العناء! كأنك لم تقرأ المعوذة، ولم تسمع مخاطبة نبيه ﷺ، فى التقدمة إليه بالاستعاذة من شر حاسدٍ إذا حسد.)[1].

وهو- هنا- يشير إلى أمرٍ معروف هو العلاج بالقرآن فى كلٍ من المعطوف والمعطوف عليه، وهو قراءة المعوذة حتى إنه قد ختم هذه العبارة بما ختمت به المعوذة فى قوله: (ومن شر حاسدٍ إذا حسد).

وقد روى النسائى عن عقبة بن عامر قال: أتيت النبى ﷺ وهو راكب، فوضعت يدى على قدمه، فقلت: أقرئنى سورة هود أقرئنى سورة يوسف. فقال لى: «ولن تقرأ شيئا أبلغ عند الله من: «قل أعوذ برب الفلق»[2].

---

(١) المصدر السابق ٣/ ١٩.

(٢) سنن النسائى بشرح جلال الدين السيوطى: كتاب الاستعاذة ٨/ ٢٥٠. دار الحديث- القاهرة سنة ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

وروى النسائى عن عبد الله قال: أصابنا طش[1] وظلمة، فانتظرنا رسول الله ﷺ يخرج. ثم ذكر كلاماً معناه: فخرج رسول الله ﷺ فقال: «قل». فقلت: ما أقول؟ قال: «قل هو الله أحد والمعوذتين حين تمسى وحين تصبح ثلاثا يكفك كل شيء»[2].

وقد ثبت فى صحيح مسلم[3] أن جبريل رقى رسول الله ﷺ بقوله» «باسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك من شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك باسم الله أرقيك». فهذه رقية جبريل لرسول الله ﷺ من النفس أو العين أو الحسد وكلها بمعنى واحد، وهى ليست رقية لرسول الله فحسب، ولكنها تصلح وتصح لكل من يقرؤها وهى شافية بإذن الله.

كما ثبت عنه ﷺ أنه كان يتعوذ بكلمات الله من كل هذه الأمراض، نحو قوله: «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق. وقوله ﷺ أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة[4] ومن كل عين لامّة[5]»[6].

---

(١) الطش: المطر، ويقال طشت السماء؛ أمطرت مطرا ضعيفا.

(٢) المصدر السابق.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى ١٤/ ١٧٠.

(٤) الهامة: كل ذى سم يقتل سمه. (الوسيط: هـ م. م).

(٥) اللامة: العين التى تصيب بسوء. وكل ما يخاف من فزع أو شر أو مس (الوسيط. مادة ل. م. م).

(٦) زاد المعاد لابن القيم: ٣/ ١١٨.

وذكــر ابن القيــم- رحمه الله- أن من الرُّقى ما يــرد العين فقد أورد ماذكر عن أبى عبد الله التياحى أنه كان فى بعض أسفاره للحج أو الغزو علــى ناقة فارهة، وكان في الرفقة رجل عائن، قَلّما نظر إلى شــىء إلا أتلفــه، فقيل لأبي عبد الله احفظ ناقتك مــن العائن، فقال: ليس له إلى ناقتي ســبيل. فأخبر العائن بقوله، فتحين غيبة أبى عبد الله فجاء إلى رحله فنظر إلى الناقة فاضطربت وســقطت. فجاء أبو عبد الله فأُخْبِر أن العائن قد عانها، وهي كما ترى. فقال: دلوني عليه. فدُلّ، فوقف عليه وقال: بســم الله، حبسٌ حابس، وحجر يابس، وشهاب قابس، رددت عــين العائن عليه وعلى أحب الناس إليــه، فارجع البصر هل ترى من فطــور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاســئاً وهو حســير» فخرجت حدقتا العائن، وقامت الناقة لا بأس بها[1].

إن كل ما ورد من نصوص سابقة فى علاج الحسد، إما نصوص شرعية وردت في القرآن الكريم أو الســنة المطهرة وإما نصوص نقليه؛ تناقلها الناس عبر العصور الزمنية بناء عن خبرات وتجارب.

فأما ما ورد عن الشــرع من نصوص قرآنية أو نبوية فى علاج الحسد فهو حقيقي ومصدق لا يتطرق إليك شــك، ومن ينكره فقد أنكر معلوماً من الدين بالضرورة، وهو علاج ناجح للحســد نافع شــاف للمحسود إن شاء الله تعالى.

---

(١) نفس المصدر: ٣/ ١٢٠.

وأما ما ورد في علاج الحسد من نصوص أخرى فلنا أن نصدق بها أو نكذب إلا ما كان عن تجربة فلا يتطرق إليه شك لصاحب التجربة نفسه، وما عداه فموقفنا منه كما وضحت مهما كان مصدره.

والله أعلى وأعلم وهو من وراء القصد.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله أولاً وآخراً .

مظاهر الحسد وظواهره على الحاسد

مفردها

مظهـــر؛ وهو الصــورة التى يبــدو عليها الشــىء. وظواهر؛ مفردهــا: ظاهر وهو ما يبدو من الشــىء فى مقابل ما هو عليه فى ذاته[1].

فأما الأولى فهى أمور تكمن داخل نفس الحاسد الشريرة، وأما الثانية فإنها علامات تظهر على وجه الحاسد، وأعمال تقوم بها جوارحه تكون موجهة من الداخل نتيجة تأثير الحسد فى داخله.

وقد اســتطاع الجاحظ ببراعة فائقة، ومهــارة عالية، أن ينفذ داخل نفس الحاســد، ويتعمق فيها؛ فيوضح كُنهها ويبين ما تنطوى عليه من خبث ودناءة، ثم يخرج منها وقد حقق ما كان يصبو إليه. ومن ثم فإنه يصف مظاهر الحسد وظواهره فيقول: وما لقيت حاسداً قط إلا تبين لك مكنونه بتغير لونــه، وتخوُّص عينه، وإخفاء ســلامه، والإقبال على غيرك، والإعراض عنك، والاستثقال لحديثك، والخلاف لرأيك[2].

وكأنــه يرى علامــات على الحاسِــد لا تخفى على أحــدٍ قط؛ لأنها بــارزة. واضحة تَنُمُّ عــن داخله؛ وأُولى هذه العلامــات الظاهرة؛ تغير

(١) راجع: المعجم الوسيط- مادة (هـ- ر).

(٢) الرسائل ٣/ ٨- ٩.

اللون، فأمــا إلى الحُمْرة فلا؛ لأن تغير لون الوجه إلى الحمرة يدل على الخجل والحياء،وهما صفتان مفقودتان عنده. إذن فاللون الذى يناســبه هو الصفرة، ونحن نرى- حقا- هذا اللون دائماً يشوب وجه الحاسد ينم عمّا بداخله من غل وحقد.

والصفة الثانية التى خرج الجاحظ بها من أعماق نفس الحاســد هى تخــوُّص العينين؛ يقال خَوِص خوصــاً: غارت عينه وضاقت. وخوص؛ كانت إحدى عينيه أصغر من الأخرى؛ فهو أخوص، وهى خوصاء. ومن ظواهر الحســد غُوُر وضيق عين الحاسد؛ وهى صفة لازمة له، ونتيجة طبيعية لما يثور فى داخله من بركان، وما يتأجج فى نفسه من نيران.

ولا يســتطيعِ الحاسد- مهما أوتى من قوة- أن يُخْفى مظاهر حسده، ومن ثم فإنه يُسلِّم على محسوده بطريقة ملفتة تدعو إلى الاشمئزاز؛ تبين توجهه ناحيته وهو ما نبه إليه الجاحظ بقوله: «وإخفاء سلامه».

كما أن سلطان الحسد عند جامح وقهره عليه غالب، وأثره قوى حتى إنه ليســتطيع أن يغير اتجاهه؛ فيشــيح بوجهه بعيداً عن محسوده، متوجها به إلى شــخص آخر. كما أن نفســه السقيمة توجِّه سمعه وقلبه بعيدا؛ فيســتثقلان حديث المحســود، وتوجِّه عقله فيخالف الحاسدُ محسوده فى الرأى.

كل هــذه المعانى جاء بها الجاحظ فى أســلوب أدبــى رفيع، وقالب فنى غاية فى الدقة والمهارة، وموسيقى عذبة رقيقة حققها السجع بين

الكلمات: مكنونة.. لونه.. عينه.. سلامه. وبين الكلمات: غيرك.. عنك.. حديثك.. رأيك.

وجاءت المقابلة بين.. الإقبال على غيرك.. والإعراض عنك. في موضعها لتبين حال الحاسد، وما عليه من تناقض واضطراب داخلي.

وفي موضع آخر من (رسالة الحاسد والمحسود)[1] يبين مدى اضطراب حال الحاسد، وتقلب أموره في قوله: إنه لا يأتيك ولكن يناديك، ولا يحاكيك ولكن يوازيك، أحسن ما تكون عنده حالاً، أقل ما تكون مالاً، وأكثر ما تكون عيالاً، وأعظم ما تكون ضلالاً. وأفرح ما يكون بك، أقرب ما تكون بالمصيبة عهداً، وأبعد ما تكون من الناس حمداً.

وهكذا يرسم الجاحظ علامات بارزة وقسمات واضحة على وجه الحاسد في كل حال من أحوال المحسود تمثل الاضطراب والتناقض، ومدى تَوَقُّد قلبه غيظاً وكمَداً من سراء المحسود، وسعادته وسروره في ضراء محسوده. وقد رسم هذه اللوحة المعبرة على وجه الحاسد بالألفاظ المعبرة والصُّوَر الفنية البارعة، والموسيقى العذبة، التي حدثت من السجع والتناسق، وكان لها دور في كسر حدة الجفاف العلمي وجعلها تبعث في النفس النشوة والسرور مع أن الحديث عن أشقى خلق الله وهو الحاسد.

---

(١) المصدر السابق ٣- ٢٠.

ثم إنه يعرض- في أسلوب أدبي رائع- حال الحاسد إزاء أنواع مختلفة من المحسودين ويبين- مع كل نوع- ما يظهر على الحاسد من علامات، وما يفعله من تصرفات قولية أو فعلية تبين حقيقته، وتكشف طويته؛ وأول الأنواع الذين عرض لهم هو المحسود الغَنيُّ؛ وذلك لأن الغنَى من أظهر النعم التي تتعرض للحسد، ويكون وقْع حسدها شديداً خاصة إذا كان الحاسد في فقر وضيق فيقول: «ومن شأن الحاسد إن كان المحسود غنياً أن يوبخه على المال فيقول: جمعه حراماً، ومنعه أثاماً، وألَب عليه محاويج[1] أقاربه فتركهم له خصماء، وأعانهم في الباطن وحمَل المحسود على قطيعهم في الظاهر وقال له: لقد كفروا معروفك، وأظهروا في الناس ذمك، فليس أمثالهم يوصلون، فإنهم لايشكرون. وإن وجد له خصماً أعان عليه ظلماً، وإن كان ممن يعاشره غَشَّه، أو تفضل عليه بمعروف كفره، أو دعاه إلى نصر خذله، وإن حضر مدحه ذمّه، وإن سُئل عنه هَمَزَه، وإن كانت عنده شهادة كتمها، وإن كانت منه إليه زَلَّة عظَّمها، وقال إنه يحب أن يُعاد ولا يعود ويرى عليه العقود).

وتفصيل وافٍ لحال الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله بنعمة المال، التي هي من النعم العظيمة؛ فبه تقوم الحياة وعلى متنه تسير.

---

(١) المحاويج من الأقارب؛ المحتاجون منهم.

في هـذه الفقرة، يتنـاول الجاحظ موقف الحاسـد بترتيب دقيق، فينصـبُ اهتمامه- أولاً- على مصدر المال إذ يدَّعي، أن هذا المال جمعه المحسـود من الحرام، وهو- بهذا- يلجأ إلى الدين باعتباره أشد تأثيراً مـن غيره في قلوب الناس، فإذا أقنع العامة أن هذا المحسـود يرتكب المحرمـات، ولا يأبَه بأوامر الدين، اسـتطاع أن يوغـر الصدور منه، ويوجد العداوة تجاهه فقال عنه (جمعه حراماً).

ليس هذا فحسـب، ولكن بجانـب المصدر غير الشـرعي للمال، إلا إنـه يدعـي أنه (منعـه آثامـاً) أي لم يتصدق منه علـى الفقراء والمحتاجين والمعوزين آثماً وجُرْماً. وبذلك يستطيع أن يوغر- أيضاً- قلوب الفقراء بالذات تجاه المحسـود فيكرهونه ويقفون منه موقف العداء. كما أنه لم يكتف بالفقراء عامة حتى لا تتوه كراهيته وسـط الجـم الغفير منهم، ولكنه عمد إلى فقـراء جلدته ومحتاجي أقاربه فأوغـر صدورهم ليضمـن مقاطعتهم له (وألَّب عليـه محاويج أقاربه فتركهم له خصماء...).

وهو متأرجح بين حالين (وأعانهم في الباطن وحمل المحسـود على قطيعتهم في الظاهر) فهو مرة مع أقارب المحسـود يؤلبهم ضده وكأنه معهم يأسى لحالهم ويحدُب عليهم، لكنه لا يدوم على هذا الحال فسرعان مـا ينقلب حاله ويتغير اتجاهه فيعمـد إلى الغَنِي يحثه على محتاجي أقاربه، ليثير حفيظته تجاههم، ويحمله ذلك على مقاطعتهم.

إنه متقلب متأرجح ليس له حال ثابتة ولا حياة مستقرة مادامت نار الحسد مؤججة في صدره، وألسنتها تشب في جوفه.

وحبائله في ذلك متعــددة كما يذكر الجاحظ: (لقد كفروا معروفك، وأظهروا في الناس ذمك، فليس أمثالهم يوصلون، فإنهم لا يشكرون).

وعلــى الرغم من ذلــك كله، وعلــى كل هذه النصائــح التي يقدمها للمحســود وظهوره بمظهر المشــفق عليه، إلا أن نفســه قلقة مضطربة يحاول أن يوقع محســوده في عثرات متتالية، لا يكاد يفيق من واحدة حتــى ينكبّ على وجهه فــي الأخرى فيقول الجاحــظ: (وإن وجد له خصماً أعانه عليه ظلماً) فهو منافق يظهر لمحســوده خلاف ما يبطن، فضلاً عما يوقعه عليه من ظلم.

وهو غير مؤتمن على نصيحة أو استشــارة لمحسوده لأنه لا يخلص له نصحاً، ولا يحســن له مشــورة.. وإن كان ممن يعاشــره فاستشــاره غشــه. وهو منكر للمعروف والجميل، لا يعترف بنعمة يســديها إليه محسوده.. أو تفضل عليه بمعروف كفره.

ويجب أن يعرف المحســود حاســده وينتبه إليه جيداً، ولا يعتمد عليه في أي أمر من الأمور مهما كان لأنه سيخذله لا محالة، كما يقول الجاحظ: أو دعاه إلى نصر خذله.

وقــد اســتخدم الجاحظ لإبراز تلــك المعاني، الألفاظ المعــبرة الدالة عليها، كما أنه- كعادته- استخدم البديع أبدع استخدام وأروعه ليظهر

به نفس الحاسـد وما عليه من قلق واضطراب وتناقض مثل الطباق الذى تحقق بين الباطن، الظاهـر..، كفروا، أظهروا..؛ نصر، خذله. مدح، ذم فى قوله: وإن حضر مدحه ذمة. وشهادة.. كتمها، وأما قوله: ويرى عليه العقود؛ فإنه كناية عن الملك والمكانة المرموقة.

وبالجملة فإن الجاحظ وصف الحاسد فى الفقرة السابقة بعدة صفات سيئة خسيسة لم يذكرها صراحة، ولكنه ذكر التصرفات الدالة عليها؛ وأولى هذه الصفات الكذب والافتراء على المحسود، ثم الغيبة والنميمة، والنفـاق والظلم والغش ونكران الجميل والخداع والمكر وكتمان شـهادة الحق والتزوير.

وثانى أنواع المحسـودين الذين ذكرهم الجاحظ لبيان ظواهر الحسد ومظاهره على الحاسـد هو العالم؛ يقول الجاحظ: (وإن كان المحسـود عالمـاً، قال: مبتدع، ولرأيه متّبِع، حاطب ليل، ومبتغى نيل، لا يدرى مـا حمل، قد ترك العمـل، وأقبل على الحِيَل. قـد أقبل بوجوه الناس إليه، وما أحمقهم إذ انثالوا عليه، فقبّحه الله من عالم، ما أعظم بليَّته، وأقل رعته وأسوأ طعمته)[1].

وهكذا ينظر الحاسـد إلى كل الناس بمنظار أسود، لا يرى خيراً فى أحد لأنه ليس أهله، وحتى العلماء لا ينجون من نظرته هذه- كما ذكر أبو عثمان فى الفقرة السابقة- فهو يتّهمهم بالابتداع، وهذه فِريْة كفيلة

---

(١) الرسائل ٣/ ٨.

أن تقود العالم إلى سوء العاقبة، وبئس المصير لقول الرسول الكريم - ﷺ -: «...إياكم ومحدثات الأمور فكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار»[1].

إن نار الحسد والبغضاء فى نفس الحاسد تجعله هكذا يكيل الاتهامات للناس على اختلاف منازلهم وطبقاتهم، وهو لا يكتفى باتهام العالم بالابتداع، ولكنه يحكم عليه بقوله (ولرأيه متبع) أى أنه معجب برأيه، لا يستريح إلا له. وليس هذا شأن العلم والعلماء؛ فالعلم؛ أخذ وعطاء، وتبادل آراء ومناقشة واقتناع، والحاسد- بذلك- يريد أن ينفى صفة (عالم) عن المحسود حقداً وحسداً، وغيظاً وكمداً.

(حاطب ليل) وهذه الصفة- حطٌّ من شأن العالم أيضاً، أى إنه يتكلم بالغث والسمين، أو إنه يجنى على نفسه لعدم تفقده أمره وكلامه. وإذا كان العالم هذا شأنه فلا يستحق أن يُخلع عليه هذا الوصف؛ لأن العالم الحقيقى لا يتكلم إلا كلاماً مدروساً منظماً، ويأتى بالمقدمات التى تُسْلمه إلى نتائج طبيعية لا غموض فيها ولا التواء.

كما أن هذا العالم- فى نظر حاسده- ليس هو العالم الذى يبتغى بعلمه وجه الله وكفى، حتى ينفعه علمه فى الدنيا والآخرة، ولكن الحاسد يقول عنه: (ومبتغى نيل) فعلمه ليس إلا للتكسب والعطاء، وهذه من أخس صفات العالم.

---

(١) سنن الدارمى- ١/ ٤٤- ٤٥- دار إحياء السنة النبوية- القاهرة.

والحاسد في هذه الفقرة التي أوردها الجاحظ ؛ لبيان ظواهر الحسد ومظاهره على الحاسد، يتدرج في وصفه للعالم المحسود إلى أن يخلع عنه هذه النعمة؛ ليبين أنه «تفرغ للاحتيال والنصب «لا يدرى ما حمل، قد ترك العمل، وأقبل على الحِيَل، ويوجه التهم إلى هؤلاء الذين يجلسون أمامه ويستمعون منه فيصفهم بالغباوة والجهل والحمق، لأن هذا ليس عالماً وليس عنده من علم يفيد به غيره.

ثـم يصب غضبه وحقـده وغيظه على العالم- في آخـر هذه الفقرة- فيقـول: (فقبحه الله من عالم ما أعظم بليَّته وأقل رعته وأسـوأ طعمته) فيدعو عليه بالقبح، ويتهمه بقلة الورع وأكل الحرام.

ونرى الجاحظ يسوس الألفاظ والجُمل؛ ليجعلها معبِّرة تمام التعبير. ولغتـه هي اللغة التي يقتضيها العقـل ويتطلبها التعبير عن الحقيقة؛ فلما تحدث عن ظواهر الحسـد على حاسـدى العلماء اسـتخدم الألفاظ مبتدع.. لرأيه متبع.. نيل.. حيل.. بليَّه.. رِعه.. طُعمه.

وجاء الأسلوب طبيعياً بعيداً عن التمويه والضعة. وعباراته تطول تارة وتقصر أخرى فهي لا تسـير على وتيرة واحـدة مثل.. مبتدع، لرأيه متبع ثم.. ما أحمقهم إذا انثالوا عليه. كما جاء البديع ممثلاً في السجع والجناس ليضفي على الكلام الروعة والجمال؛ وليحيل الجفاف العلمى إلى لين ولطف تتقبله النفس؛ كالسـجع المُطرَّف بين مبتدع، متبع. والترصيع بين حمَل، العمل، وكذا بين إليه وعليه، وهو استخدام طيب لحروف الجر أيضاً.

وأما الصنف الثالث من المحسودين الذين عرضهم الجاحظ في هذا المقام فهو ذو الدين والذى يقول الجاحظ عن حاسده: «وإن كان المحسود ذا دين قال: مُتَصنِّع؛ يغزو ليوحى إليه، ويحجّ ليُثنى بشىء عليه، ويصوم لتقبل شهادتُه، ويظهر النسك ليُودع المالُ بيته، ويقرأ في المسجد ليزوِّجه جارُه ابنته، ويحضر الجنائز لتعرف شهرتُه»[1].

ومما يلحظ في هذه العبارة أن الحاسد لا يترك أحداً ذا نعمة، إلا وينفث فيه سموم حسده، حتى أولئك الذين تفضل الله عليهم بمساعدتهم على التدين وأداء حقه- تعالى- عليهم بأداء صلاتهم في المسجد يرجون رحمته ويخافون عذابه، أو الذين يهاجرون إلى الله تعالى إلى بيته الحرام؛ يقيمون ركنا من أركان دينهم. أو الذين يَحْرِمون أنفسهم شهوة الطعام والشراب وسائر الشهوات فى رمضان؛ يؤدون فريضة الصيام. أو الذين يخشون ربهم ويقرءون القرآن. كل أؤلئك الذين يتقربون إلى خالقهم بشتى ألوان الطاعات، لا يسلمون من سموم الحاسد؛ يرصد حركاتهم وسكناتهم، ويؤِّل أفعالهم تأويلات تناسب مشاعره نحوهم؛ فقد وصف ذا الدين عامة بأنه يتصنَّع هذه الأفعال؛ أى إنها لا تصدر عن اقتناع داخلى، وإنما يصنع المحسود ذلك كله ليحقق أغراضاً عددها الجاحظ بعد ذلك- مع كل واحد منهم.

(١) رسائل الجاحظ ٣/ ٨.

فنــراه يتهم الذى يغــزو فى ســبيل الله- وهى فريضة من أشــرف الطاعات وأجلّ العبادات لأن الإنســان يجود فيها بنفســه وروحه وهو غاية ما يستطيع الإنسان أن يقدمه كما يقول الشاعر:

والجود بالمال جود فيه مكرمــة   والجود بالنفس أسمى غاية الجود

يتهمه الحاســد- كما يقول الجاحظ- بأنــه يفعل ذلك ليوحى إليه بــأى غرض من الأغراض مــادى أو معنوى، وهو- بهــذا- لا يريد إلا إرضاء الناس- فى نظر حاســده- ومن يفعل ذلك لا خير فى عمله مهما كان عظيماً.

وهــذا المتدين الذى يقصد الحــج إلى بيت الله الحرام؛ لا لأداء الطاعة أو إقامة فريضة أو إعلاء ركن من أركان الدين، إنما يفعل ذلك- فى نظر حاسده- ليقال له (حاج). كما أنه لا يؤدى فريضة الصوم إلا ليُشهد له بالصلاح والورع؛ للاستشــهاد به فى الشــهادات «ويُظهر النسك ليودع المــال بيته، ظنا من الحاســد أنه مــا فعل هذا إلا ليضمنــه الناس على أموالهم، فيُودعونها عنده؛ فيســتفيد منها. وهو لا يذهب إلى المســجد إلا ليزوِّجــه جاره ابنته؛ حيــث إن الآباء لا يأتمنون على أعراضهم إلا أهل التقوى والصلاح والورع، ويحضر الجنائز لتُعرف شهرته، ويقول الناس إنه لا يتركه واجب ويشارك الناس أفراحهم وأتراحهم.

وهكذا يكشف الجاحظ عن الوجه القبيح للحاسد بإبراز وبيان ظواهر الحسد ومظاهره على لسان الحاسد فى أسلوب سلس رقيق عذب طريف،

بألفاظ واضحة، واقعية محسوسة، بعيدة عن الخشونة والغرابة، وأداء متميز عذب، تساعد على عذوبته تلك الموسيقى الجميلة، التى يبعثها ذلك السجع باتحاد الفواصل فى مثل: إليه، عليه. وفي شهادته، بيته، ابنته، شهرته؛ فقد أحدث هذا الترصيع تلك النغمة الهادئة العذبة الرقيقة التى لا تجعل القارئ يحس بملل وهو يقرؤها.

ومن مظاهر الحسد- كما ذكر أبو عثمان فى رسالة (فصل ما بين العداوة والحسد)- حسد مؤلفي الكتب والمصنفات. ومظهر ذلك أن الحاسد يعمد إلى عمل محسوده ومؤلفه فيضع مثله أو قريباً منه، ويعرضه على مَن حوله أو ممن ليست له خبرة بذلك، فيصدقونه ويظنون أن الكتاب من فكرته وتأليفه. وفى هذا الصدد يقول الجاحظ: «ولست آمن- جعلنى الله فداك- أن تكون هذه الكتب التى أعنى بتأليفها، وأتأنق فى ترصيعها، يتولى عرضها عليك من قد لبس لباس الزور في انتحال وضع مثلها، ونسب نفسه إلى القوة على نظائرها، والمعرفة بما يقاربها إن لم يكن أخاها فابن عمها، وتشبع بما لم يطعمه الله منها.

ولعل بعض من حوله أو بعض من يهزل به، ويرتع فى عقله، ويلهو بلبه ويضعه على طبطابة اللعب، وفى أرجوحة العبث يوهمه الحسد له على ما يدعى من ذلك، ويتقدم إلى آخرين فى إيهامهم إياه ذلك، فيزيده فعلهم ضراوة بادعاء ما ليس معه، وهو منه عار..، فإذا رجع إلى الحقائق علم أن مثله كما قد قيل:

ومن يسكن البحرين يعظم طحاله ويُغبط بما في البطن والبطن جائع

فيلتوى في قراءتها، ويقبض لسانه على بسط ما يحتاج أن ينشره منها، ويقصر في تفخيم حروفها ولا يملأ فمه منها[1].

لقد تمادى هذا الحاسد تمادياً شديداً وقلّد فعل غيره حسدا، واستخف بعقول من حوله لقلة معرفتهم، وضعف عقولهم وسذاجة أفكارهم فأوهمهم بأن العمل من فكره، ولم يسبقه إليه أحد، فصدقوه وشجعوه، وأوهموه بأنه وحيد عصره، وفريد دهره في هذا المجال، فكان تشجيعهم له حافزاً للاستمرار في أكذوبته فازداد- كما يقول الجاحظ – ضراوة بادعاء ما ليس معه وهو منه عار.

وفي العبارة- موضع الدراسة هذه- يعرض الجاحظ عدة صور بيانية يصور بها حال هذا الحاسد كقوله: قد لبس لباس الزور في انتحالها. فهو يصور الزور بالثياب التي تستر جسد الإنسان وتدارى عوراته، فإذا كان هذا اللباس زوراً ليس حقيقة انكشف أمره وظهر على صورته الحقيقية.

وأما قوله: «وتشبَّع بما لم يطعمه الله منها». فهو تصوير للعلم أنه طعام، فإذا كان الطعام الحقيقي يسد فراغ البطن وجوعته، فإن طعام العلم يسد فراغ الفكر وثغرته. وهذه الصورة لها ما لها في بيان الحاجة إلى العلم كالحاجة إلى الطعام.

---

(١)رسائل الجاحظ ١/ ٣٤٠- ٣٤١.

وقوله: «يرتع فى عقله». استعارة مكنية شبه العقل كأنه فراغ متسع والحاسد يلهو ويرتع فيه، وهى صورة تكشف عن حقيقة هؤلاء الذين يصدقون من يوهمهم بنسبة أعمال غيرهم إليهم، كما أنها تبين مدى فراغ عقول هؤلاء وتفهاتها. وقوله: (ويلهو بلبه) استعارة أخرى حيث شبه أن عقل هؤلاء دُمْية، أو أداةً للّعلب يلهو بها الصغار، كما تبين عقم تفكيرهم.

وقولـه: (ويضعه على طبطابة اللعب) جعل عقل المصدقين كأنه كرة يتقاذفها الأطفال وكذلك (فى أرجوحة العبث).

وقد شبه الأفكار بالآدميين وعلاقتها بعلاقتهم فى قوله (إن لم يكن أخاها فابن عمها) وهى استعارة تشخيصية جميلة. ثم هذا التدرج الطبيعى فى قوله (أخاها وابن عمها) حيث قدم علاقة الأخوة على علاقة أبناء العم.

وجاءت الألفاظ مناسبة للفكرة التى هو بصددها؛ ففى مجال التأليف والإنشاء جاءت الألفاظ: أعنى، تأليف، تأنق، ترصيف.

وفى مجال انتحالها جاءت الألفاظ: الزور، انتحال، وضع.

وفى مجال السخرية ممن يصدقون الحاسد الأفاق جاءت الألفاظ: يهزل، يرتع، يلهو، طبطابة، اللعب، أرجوحة، العبث، يوهم.

وفى مجال أثر ذلك عليه جاءت الألفاظ: ضراوة، ادعاء، عار، يلتوى، يقبض، ينشر، يقصر.

وجـاءت الأفكار في أسـلوب رصين، قوي متماسـك، مرتب ترتيباً طبيعياً، يسلم بعضه إلى بعض، وقد زينته الموسيقى العذبة التي حدثت باتحـاد فواصل الكلمات؛ كل مجموعة تشـترك في حرف أو حرفين، وهو لا يقصد إلى ذلك قصداً وإنما جاء عفو الخاطر مما جعله أشد وقعاً.

وأحيانـاً يلجأ في الألفاظ الى الترادف للإيضاح والبيان وتأكيد المعنى في نفس السـامع كما فـي قوله: يهزل، يرتع، يلهـو. وقوله: عقل، لب، وقوله: أعني، أتأنق. وأحياناً أخرى يلجأ إلى التضاد لزيادة المعنى وضوحاً وإظهار ما قد يلتبس فهمه على القارئ؛ كما في قوله: يقبض، يبسط، وقوله: ينشر ويقصر.

ومن مظاهر حسد العلماء مؤلفي المصنفات؛ أن يعمد الحاسد إلى سرقة فكرة الكتاب، لإهدائه إلى من يبتغون عندهم العطاء، خاصة إذا كان هذا المؤلف المسـروق معمولاً ليقدمه صاحبه إلى ذي الشـأن والسلطان، فنراه يقول: وإن كان السـيد المؤلف له الكتاب نِحْريراً نقّابا، ونقريساً بليغاً وحاذقاً فطنا، وأعجزتهم الحيلة، سرقوا معاني ذلك الكتاب. وألّفوا من أعراضه وحواشيه كتاباً، وأهدوه إلى ملك آخر، ومتُّوا إليه به، وهم قد ذموه وسلبوه لِمَا رأوه منسوباً إليّ وموسوماً بي[1].

إن حسد هؤلاء الحسـاد أودى بهم إلى السطو والسرقة واللصوصية، وهي صفة من أخسِّ الصفات البشرية وأرذلها.

---

(١) الرسائل: مصدر سابق ١/ ٣٥٠.

ومن مظاهر الحسد أن يعمد الحاسد إلى المؤلفات، يدفعه حسده إلى الحطِّ من شأنها، والإقلال من قيمتها والطعن عليها بقول أو إشارة فيوهم فساد معانيها، ويومي إلى سقوط ألفاظها، من غير أن يظهر المعاداة، والحسد لمؤلفها، والحمل عليها بقول يكون دليلاً على ما يُضمر، وهو أبلغ ما يكون من قلب المستمع وأنجعه فيه، فيقع ذلك بخلده[1]؛ وذلك إذا كان الحاسد لا يستطيع التأليف ويسطو على عمل محسوده كما مر بنا، فإنه لا يكف عن سلب محاسن الكتاب أو الهجوم عليه بطريقة شيطانية، وذلك بالحمل عليه بقول يكون دليلا على ما يُضمر.

إنه لا يظهر حسده وفي نفس الوقت لا يخفى مشاعره، وعدمِ إظهار حسده يجعل الناس يعتقدون أن نقده نزيه، وأن رؤيته لهذا المؤلِّف غير متأثرة بأى عامل من العوامل، ولذلك يقول الجاحظ في شأنه: (وهو أبلغ ما يكون من قلب المستمع وأنجعه فيه فيقع بخَلَدِه).

---

(١) نفس المصدر ١/ ٣٤١.

آثار الحسد فى الفرد والمجتمع

أولاً: آثاره فى الفرد:

الحسد ظاهـرة اجتماعيـة خطيرة، ومرض نفسـي يعـود أثره على الحاسـد نفسه، وهذا الأثر- فيما نحسـب- جزاء الله العادل لهذا الحاسـد الذى يؤذى محسوده بحسده، ويضمر له العداء والبغض والكراهيـة، دون ذنـب يقترفه المحسـود، أو خطأ يقـع منه فى حق الحاسـد، ولما كان المحسـود- فى معظم أحواله- غافـلاً عما يدبره له حاسـده من مكائد ومشـاكل فإن عين الله السـاهرة لا تغفل أبداً، ويده بالظالمين الحاسدين فى الدنيا والآخرة.

ولقـد صور لنـا الجاحظ ما يعانيه الحاسـد من آلام نفسـية، وآثار بدنية، وقلق واضطراب، ما يجعلنا نشفق عليه لولا حسده فيقول: ولو لم يدخل على الحاسـد بعد تراكم الغموم على قلبه، واسـتمكان الحزن فى جوفه، وكثرة مضضه ووساوس ضميره، وتنغُّص عمره وكَدَر نَفَسه، ونكد عيشه، إلا استصغاره نعمة الله عليه، وسخطه على سيده بما أفاد غيره، وتمنيـه عليه أن يرجع فى هبته إياه، وألا يرزق أحداً سـواه، لـكان عند ذوى العقول مرجوحا، وكان لديهم فى القياس مظلوماً، وقد قال بعض الأعراب: ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من الحاسد: نَفَس دائم،

وقلب هائم وحُزن لازم، والحاسد مخذول وموزور، والمحسود محبوب ومنصور، والحاسد مغموم ومهجور، والمحسود مغْشِيٌّ ومزور[1].

لقد رسم الجاحظ للحاسد صورة مذرية، ووضعاً سيئاً في بداية الفقرة بما وصفه به من صفات، وما يؤثر فيه من عوامل نفسية تنتابه بين الحين والحين، فضلاً عن سخطه- والعياذ بالله- على خالقه، لا لشيء إلا لأنه أنعم على غيره من غير أن ينقص ذلكِ منه شيئاً.

ثم عقد مقارنة بين الحاسد والمحسود في نهاية الفقرة تنم عن حس فني دقيق، ومعرفة بأحوال الناس ونفسياتهم.

لقد شبه الغموم التي تغمر الحاسد كأنها غيوم سوداء متراكمة، وكما أن الغيوم تحجب أشعة الشمس بضوئها ودفئها وبعثها للحياة على الأرض، فكذلك الغموم تتراكم على قلب الحاسد لتحجب عنه نور الإيمان فلم يعمر قلبه به أبداً.

وأفاد اللفظ استمكان الحزن في الجوف؛ مدى تأصل وعمق الحزن عند الحاسد، كما أن المضض وهو التألم الشديد وصفه (بالكثرة) لبيان مقدار هذا التألم، ومدى ما يعاني الحاسد منه، وضميره ليس في هدوء أو استقرار وإنما هو في وسواس واضطراب. واللفظ (كدر) نقيض الصفاء جعله للنفس لبيان ما بها من خبث وغبار أوجده الحسد فيها (ونكد عيشه) أي إنه لا يهنأ أبداً ولا يرى السعادة والسرور في حياته.

---

(١) الرسائل مرجع سابق ٣/ ٥- ٦.

وهذا الحاسـد ليس متمرداً على محسوده فحسـب ولكنه- لضعف عقيدتـه- متمـرد على ربه؛ سـيده وخالقه ورازقه، وهـذا التمرد لا لمصيبة حلت به ولا لشـيء آخر سـوى أن ربه أنعم على غيره كما أنعم عليه، وكأنه يشـارك ربه في مُلكه، ويقايسـه في خلقه. من أجل ذلك استحق مقت الله وسخطه.

ثم يعقد الجاحظ مقارنة بين الحاسـد والمحسـود بما نقله عن بعض الأعراب الذى يقول: (ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد) فهو ظالم لأنه ظلم غيره، وهو في نفس الوقت مظلوم بما جنته نفسـه عليه، وبما عاد عليه من حسـده، فنفَسُـه مكروب متصل كأن بداخله مرض عضال، وقلبه مضطرب غير مستقر، وجوفه مليء بالأحزان على ما تفضل الله به على عباده، فهو بذلك مهزوم دائماً ومرتكب للذنوب والمعاصي والآثام.

وأما محسـوده فإنه مسـتحق لعطف الناس، وشفقتهم فهو محبوب ومنصور من الله على حاسـده، وإذا كان الحاسد مغموماً بهذا الشكل فإن الناس تهجره ولا تزوره وأما المحسود فإنه مغشي ومزور.

وقد أنهى الجاحظ العبارة السـابقة بجمل قصيرة تتحد فواصلها في حرفين أو حرف واحد، لتحدث جرساً موسيقياً يناسب أحزان الحاسد ويصف إيقاعها داخله: نَفَس دائم، وقلب هائم، وحزن لازم، كل جملة مـن كلمتين. والمبتدأ في كل منها من ثلاثـة حروف والخبر من أربعة على وزن فاعل؛ تقسيم بديع، ودقة وروعة.

ويأتـي– بعد ذلك– إيقاع آخر ذو نغمـة تختلف عن الأول في أربع جمـل وفي كل جملة ثـلاث كلمات؛ مبتدأ الأولى والثالث اسـم فاعل، وخبره اسـم مفعول، ومبتدأ الثانية والرابعة اسـم مفعول وخبره اسم مفعـول أيضـاً وفواصل الكلمـات متحدة في الجمـل الأربع بحرفين: موزور، منصـور، مهجور، مزور. هذا الترصيع أوجـد إيقاعاً منتظماً له أثره على القارئ.

والجاحـظ الفنان الخبير بطبائع الناس وأخلاقهم يبين أثر الحسـد علـى الفرد بيانـاً دقيقاً لا يحتاج إلى بيان آخر لأنـه يملك أزمّة الكلام فـلا تعصيه كلمة مهما دق موضوعها، ومهما أخفى سـبب وصفها، ولا يُطوى لسـانه على معنى في قلبه لا يتسنى له إبرازه بالنطق أو تمثيله باللفظ فيقول: (وما لقيتَ حاسـداً قط إلا تبين لك مكنونه بتغير لونه، وتخوّض عينه، وإخفاء سـلامه والإقبال علـى غيرك والإعراض عنك، والاسـتثقال لحديثك والخلاف لرأيك)[1] وكأن الجاحظ – بهذا– شـق صدر الحاسـد وسَـبرَ غوره، ليوضح ما يكنه لمحسـوده، فأرسـل من الداخل هذه العبارات المعبرة تماماً عن نفس الحاسد.

وفي العبارة يستخدم الجاحظ الصوت والصورة واللون؛ فوجّه الحاسد متغير مصفرّ مـن كثرة الهموم التي تنتابه، والعيون غائرة مدفونة في

---

(١) الرسائل ٣/ ٨– وانظر ص ١٠٢، ١٠٥ من هذا البحث.

جمجمته، وهو مقطب الجبين، وإذا أقبل عليه محسوده ليسلم عليه سلم عليه بأطراف أصابعه، ثم أشاح بوجهه عنه. وصوت محسوده وحديثه مكروه إلى نفسه، ولا يوافقه على رأى أبداً مهما كانت وجاهته.

ولقد ضرب الجاحظ على حال الحاسد- هذا- مثلاً بعبد الله بن أُبَىَ ابن سلول؛ فبعد أن عرض ما كان عليه قبل قدوم النبى- ﷺ- المدينة كما ذكرنا من قبل قال عنه بعد أن عز الإسلام وارتفعت رايته: شمخ بأنفه.. وأظهر نفاقه.. فحمُق بعد اللبّ وجهل بعد العقل.. ثم برر الجاحظ هذه التصرفات منه بما ذكره عنه أصحابه عندما شكاه رسول الله- ﷺ- إليهم فقالوا: يا رسول الله لا تَلُمْه، فإنا كنا قد عقدنا له الخرز قبل قدومك لنتوِّجه»[1].

ثم علق الجاحظ على ذلك بقوله: «ولو سلم المخذول قلبه من الحسد لكان من الإسلام بمكان، ومن السؤدد بارتفاع. فوضعه الله لحسده وأظهر نفاقه»[2].

وللحسد وطأة شديدة على صاحبه، وقوة عاتية يصورها الجاحظ فى صورة حيوان جامح متمرد لا يستطيع صاحبه التغلب عليه دائماً فيقول: «وأنا أقول حقاً ما خالط الحسد قلباً إلا لم يمكنه ضبطه، ولا قدر على تسجينه وكتمانه، حتى يتمرد عليه بظهوره وإعلانه فيستعبده

---

(١) رسائل الجاحظ ٣/ ١٠.

(٢) نفسه المصدر ونفس الصفحة.

ويستميله، ويستنطقه لظهوره عليه»[1]. قوة هائلة جبارة متمردة على صاحبها دائماً في كل حال من حالاته، تسيطر على لسانه فلا ينطق إلا بها، وتسيطر على عقله وتسيطر على كيانه. حتى إن الجاحظ ليجعل الحاسد عبداً لهذه القوة، بل إن لها ما لأكثر من السيِّد على عبده من تأثير وتوجيه، وتارة يشبه أثر هذه القوة بأثر السلطان على رعيته، أو الرجل على زوجته في قوله: فهو أغلب على صاحبه من السيد على عبده، ومن السلطان على رعيته، ومن الرجل على زوجته ومن الآسر على أسيره)[2].

ثانياً: آثاره في المجتمع:

ولما كان الحسد ظاهرة اجتماعية، يوجد باجتماع الناس، واطلاعهم على أحوال بعضهم، والتقائهم داخل مجتمع واحد، كان له أثره السيء في التجمع البشرى، وإذ كنا نقول: إنه آفة المجتمع، ومرض خطير يستشرى في أوصاله، فلابد له- والحالة هذه- من آثار تعود على المجتمع بالضرر والشرور، جمع الجاحظ معظمها في قوله: «منه تتولد العداوة، وهو سبب كل قطيعة، ومنتج كل وحشة، ومفرق كل جماعة، وقاطع كل رحم بين الأقرباء، ومحدث التفرق

(١) نفسه ٣/ ١٢.

(٢) رسائل الجاحظ مصدر سابق ٣/ ٥.

بين القرناء، وملقّح الشر بين الخلطاء، يكمن في الصدر كمون النار في الحجر»[1].

شرور كثيرة، وأمراض خطيرة، وعداوات وقطع للأرحام يحدثها هذا المرض اللعين، وسنتحدث عن العداوة معه في حديث مستقل إن شاء الله.

(وهو سبب كل قطيعة) والقطيعة من القطع وانفصام العُرَى، أي إنه يتسبب في قطع علاقات وأواصر المحبة بين الناس ؛ لبذره بذور الكراهية والبغضاء في النفوس.

وأما قوله: (منتج كل وحشة) فإنها استعارة معبرة؛ حيث شبه الحسد بالحيوان الذي يلد وينتج الصغار، ولكن الحسد ينتج الوحشة والتفرقة على طريقة الاستعارة المكنية. وقوله (مفرق كل جماعة) شّبهه أيضاً كأنه حيوان مفترس يهجم على التجمعات البشرية فتنفر منه الناس وتجرى بعيداً عنه.

وأما أظهر آثار الحسد في المجتمع وأخطرها- كما يقول عنه أبو عثمان- فإنه (قاطع كل رحم بين الأقرباء) فإذا كان سبباً في عداوات الناس البعيدة، فإنه أشد أثراً وأكثر خطراً إذا كان بين الأقرباء الذين يترابطون بأواصر الرحم. ولقد بين الله لنا في كتابه الكريم أن قطع الأرحام فساد

---

(١) المصدر نفسه، ونفس الجزء والصفحة.

فــى الأرض وأن قاطعى الأرحام ملعونون؛ أى ليس لهم نصيب فى رحمة الله يوم القيامة، قد أصابهم الصمم والعمى فلا يسـمعون الخير ولا يرونه قــال تعــالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ (٢٣) ﴾[١]

ثم أعقب الله ذلك بسـؤال يسـتنكر فيــه على من لا يتدبــرون القرآن ولا يفهمون معانيه، أو يفهمونهــا ولا يطبقونها، وكأن قلوبهم وعقولهم قد أوصدت أمام الحق بأقفال محكمة يقول تعالى - بعد الآيتين السابقتين-:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) ﴾[٢].

روى مســلم في صحيحه عن أبى هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رســول الله-صلى الله عليه وسلم-: «إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت: هــذا مقام العائذ مــن القطيعة قال نعم، أما ترضــين أن أصل من وصلك وأقطع مــن قطعك؟ قالت بلى قال فذلك لك ثم قال رســول الله- صلى الله عليه وسلم-: اقرءوا إن شـئتم «فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض[٣] الآيات الثلاث من سورة محمد صلى الله عليه وسلم.

إن هذه القطيعة وذلك الجزاء الذى ينتظر صاحبه والعاقبة السيئة له سبَبها الحسد كما ذكر الجاحظ.

---

(١) سورة محمد (٢٢- ٢٣).

(٢) سورة محمد الآية رقم ٢٤.

(٣) انظر: صحيح مسلم بشرح النووى: ١٦/ ١١٢.

ومن آثاره في المجتمع- أيضاً- كما ذكر الجاحظ أنه يحدث التفرق بين القرناء والله سبحانه وتعالى يحذر من مغبة التفرق ويدعو إلى التآلف والوحدة فيقول: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾[1].

فإذا كان الله قد وحَّدنا على كلمة (لا إله إلا الله)، وجمع شمل الأمة الإسلامية ودعاها إلى الاستمساك بهذا الدين العظيم، فإن الحاسد يسعى إلى تفريق هذه الكلمة فلا تقوى على مواجهة أعدائها.

«وملقح الشر بين الخلطاء»؛ استعارة جميلة معبرة تبين أن الحسد هو الذى يغذى الشر ويذكي ناره ويستمد منه بقاءه.

وأخيراً فإنه- أى الحسد- كما ذكر الجاحظ (يكمن فى الصدر كمون النار فى الحجر) ولم يقل كمون النار في الهشيم، لأن المعروف أن الحجر يحتفظ بالحرارة داخله لفترات طويلة وربما كانت سببا فى تفتيته، وكذلك الحسد شبهه بالنار الشديدة، وصور قلب الحاسد بالحجر، فهو بحسده وكمده والنار متلازمان أبداً. وحُسن تشبيه قلب الحاسد بالحجر لتشابههما فى الصلابة وعدم التسليم بقضاء الله فى خلقه .

وفى قوله (يكمن) ما يدل على الاستتار والاختفاء لا يراه أحد ولا يعرفه إلا من خلال تصرفاته الظاهرة.

---

(١) سورة آل عمران من الآية رقم (١٠٣).

المصادر والمراجع

١ - الأحاديث القدسية: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

٢ - إحياء علوم الدين: لأبـى حامـد الغـزالى. وبهامشـة تخريـج الأحاديث للحافظ العراقي. دار الغد العربى. سنة ١٩٩٦م.

٣ - أساس البلاغة: للزمخشـرى. (جـار الله أبو القاسـم محمود ابـن عمر). الهيئة العامـة للكتاب. ط. ثالثة ١٩٨٥م.

٤ - الأمالى: للقالى. (أبى على إسماعيل بن القاسم). الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٥م.

٥ - أنساب العرب: للسـمعانى. (أبى بكر سعد عبد الكريم محمد بن منصـور التميمى). دار الكتـب العلمية. بـيروت - لبنان. مصطفـى الحلبى. ط. ثانية ١٣٧١/١٩٥٢م.

٦ - الإيضـاح فى تلخيص المفتاح: للقزوينى. مكتبة الآداب.

٧ - البخلاء: للجاحـظ. (أبـى عثمـان عمرو بـن بحر بن محبـوب). تحقيق د.طـه الحاجـرى. دار المعارف ط. سادسة ١٩٨١م.

٨ – البداية والنهاية — لابن كثير. (عماد الدين أبو الفدا إسماعيل ابن عمـر). دار الغد العربـى. ط. أولى ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

٩ – البيان والتبيين — للجاحـظ. بتحقيـق عبـد السـلام هـارون. الخانجى.

١٠ – تاريخ الإسلام — للذهبى. (الحافظ شمس الدين محمد ابن أحمد بن عثمان). دار الغد العربى.١٩٩٦م.

١١ – تاريخ بغداد — للبغـدادى. (الحافظ أبو بكـر أحمد بن على الخطيب). المكتبة السلفية. المدينة المنورة.

١٢ – تهذيب التهذيب — لابن حجر. (الحافظ شـهاب الدين أحمد ابن على). دار الفكر. ط. أولى ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

١٣ – الجامع الصحيح — (سـنن الترمذى). لأبى عيس محمد بن عيس بن سورة. دار الحديث – القاهرة.

١٤ – الجامع الصغير — للسيوطى. (جلال الدين عبد الرحمن). دار القلم.

١٥ – الجامـع لأحـكام القرآن — (تفسير القرطبى) لأبى بكر محمد بن أحمد. دار الشعب.

١٦ – جمهـرة أنسـاب العرب — لابن حـزم. (أبـى محمد على بـن أحمد بن سـعيد) تحقيـق عبد السـلام هـارون. دار المعارف ط. ثالثة ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

١٧ – الحيوان — للجاحظ. (مصطفى البابى الحلبى) ١٩٣٨م.

١٨ – خزانة الأدب للبغدادى. (عبد القادر بن عمر) بتحقيق عبد السلام هارون. الخانجى.

١٩ – رسائل الجاحظ للجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون.

٢٠ – زاد المعاد فى هدى خير العباد لابن القيم. (شمس الدين أبو عبد الله محمد ابن بكر بن أيوب بن سعد الزرعى). ت: ٧٥١ المطبعة المصرية ومكتبتها.

٢١ – السحر والحسد محمد متولى الشعراوى.مؤسسة أخبار اليوم.

٢٢ – سنن أبى داود لأبى داود (الإمام الحافظ أبى داود سليمان ابن الأشعث السجستانى الأزدى). ٢٠٢– ٢٧٥هـ. تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد. المكتبة العصرية. صيدا. بيروت.

٢٣ – سنن الدرامى للدرامى. دار إحياء السنة النبوية.

٢٤ – سنن النسائى بشرح السيوطى للنسائى. (الإمام الحافظ أبو عبد الرحمن أحمد شعيب بن على ابن بحر النسائى). دار الحديث– القاهرة. ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٢٥ – سيرة النبى لابن إسحق. (أبو عبد الله محمد بن إسحق ابن يسار المطلبى). ت: ١٥١هـ. وهذبها ابن هشام. (أبو محمد عبد الملك بن هشام). ت: ٢١٨ فنسبت إليه وحققها محمد محى الدين عبد الحميد. محمد على صبيح.

٢٦ - شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات	لابن الأنبارى (أبو بكر محمد بن القاسم) بتحقيق عبدالسلام هارون. دار المعارف. ط. خامسة ١٩٩٣م.
٢٧ - صحيح البخارى	لأبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى. دار الشعب.
٢٨ - صحيح مسلم بشرح النووى	للإمام مسلم (أبى الحسين بن مسلم بن الحجاج القشيرى). دار الريان. ط. أولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
٢٩ - ضحى الإسلام	لأحمد أمين. لجنة التأليف والترجمة والنشر.
٣٠ - عمدة التفسير	لابن كثير. تحقيق أحمد شاكر. دار المعارف ١٩٥٦م.
٣١ - فتح البارى بشرح صحيح البخارى	لابن حجر. دار الفكر .ط. أولى ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
٣٢ - القاموس المحيط	الفيروز آبادى مصطفى الحلبى. ط ثانية١٣٧١هـ/١٩٥٢م.
٣٣ - قصص الأنبياء	لابن كثير. المكتبة التوفيقية - القاهرة.
٣٤ - لسان العرب	لابن منظور. دار المعارف ١٩٧٩ م.
٣٥ - مجمع الأمثال	للميدانى (أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم). تحقيق د. محمد أبو الفضل إبراهيم. مكتبة الإيمان.

٣٦ – مروج الذهب للمسعودى (أبو الحسين عليّ بن الحسين المسعودى). ط. ثانية. دار الأندلس، بيروت – لبنان، ١٣٩٣هـ، ١٩٧٣م.

٣٧ – مسند الإمام أحمد للإمام أحمد بن حنبل. دار الفكر العربى.

٣٨ – معجم الأدباء لياقوت الحموى عيسى البابى الحلبى.

٣٩ – المعجم الصغير للطبرانى (أبو القاسم سليمان بن أحمد ابن أيوب). دار الكتب العلمية. بيروت– لبنان ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٤٠ – المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم محمد فؤاد عبد الباقى. دار الشعب.

٤١ – المعجم الوسيط مجمع اللغة العربية.

٤٢ – مفاتيح الغيب للفخر الرازى (محمد بن عمر بن الحسين). دار الغد العربى.

٤٣ – مفتاح كنوز السنة وضعه بالإنجليزية أ.ى فنسنك. تعريب محمد فؤاد عبد الباقى. راجعه الشيخ خليل اليس. دار القلم. بيروت– لبنان.

٤٤ – المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى. (أبى القاسم الحسين ابن محمد). دار المعرفة. بيروت – لبنان.

٤٥ – الملل والنحل للشهرستاني. (أبى الفتح محمد بن عبد الكريم). الأدبية ١٣١٧هـ.

٤٦ – منهاج القاصدين لابن قدامة (الشيخ أحمد بن عبد الرحمن). دار التراث.

٤٧ – الموسوعة الذهبية د. فاطمة محجوب. دار الغد العربي.

٤٨ – الموطأ للإمام مالك بن أنس (ﷺ). مكتبة زهران.

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة

الاشتراكات

اشترك فى سلسلة اقرأ تضمن وصولها إليك بانتظام

الاشتراك السنوى :

- داخل جمهورية مصر العربية ٦٠ جنيهًا.
- الدول العربية واتحاد البريد العربى ٨٠ دولارًا أمريكيًا.
- الدول الأجنبية ٩٠ دولارًا أمريكيًا.

تسدد قيمة الاشتراكات مقدمًا نقدًا أو بشيكات بمجلة أكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل – ماسبيرو – القاهرة

يناقش هذا الكتاب قضية مهمة وخطيرة منذ بدء الخليقة وهى "الحسد" وقد استعرض المؤلف تاريخ الحسد منذ بدأ فى السماوات من حسد إبليس لأدم ثم بعد ذلك حسد قابيل لهابيل ثم توالى بعد ذلك أشكال الحسد وألوانه وصنوفه.

وقد تناول المؤلف هذه القضية من منظور إسلامى مستشهدا بالنصوص القرآنية والأحاديث النبوية التى عالجت الموضوع وسار على هديها شارحا وموضحا ومبينا ما وسعه الشرح والتوضيح.

وقد ربط المؤلف بين الماضى والحاضر بين الدراسات السابقة عن الحسد والعلم الحديث كما بين المؤلف أن أداة الحسد وهى العين يخرج منها شعاع مدمر على المحسود.

ووصف الحاسد حالة حسده من تخوص عينه واصفرار وجهه وانتفاخ أوداجه.

وأخيرا ذكر المؤلف العلاج الذى ذكره القرآن الكريم والسنة المطهرة لهذا الداء وهو علاج شافٍ بإذن الله.



دار المعارف

٤٠٧٩٧٥ / ٠١